جمال الجزيري



دار التلاقي للكتاب

تعنى بنشر الثقافة الرفيعة والإبداع المتميز

المدير العام : **د . أسرار الجراح** مدير النشر : **السمّاح عبد الله**

جمهورية مصر العربية – الجيزة – العجوزة

54 شارع شاهين – الطابق الأرضي – شقة **7**

تليفون : **0117652396 – 33477903**

Email : altalaqi22@yahoo.com

اسـم العمل : غلق المعابر

المـؤلف : د . جمال الجزيري

السلسلة : النصوص القصصية

الطـبعة : الأولى

تاريخ النشر : القاهرة، يناير 2010

تصميم الغلاف والإخراج الفني : سين عين

النـاشـر : دار التلاقي للكتاب

عدد الصفحات : 104 صفحة

عدد النسخ : **1000** نسخة

مقاس الكتاب :(متوسط) 14 x 20

رقم الإيداع :

غَلْقُ المَعَابِرِ

قصص قصيرة

جمال الجزيري

الطبعة الأولى

دار التلاقي للكتاب

يناير 2010

إِشَارَةْ

كتبت قصص هذه المجموعة في الفترة من

2004 إلى 2009

حركةٌ في الحقولِ

كالكائن الأعرج، يطل من شرفة على الخواء، يتأمل رجله المكسورة المصلوبة على أعواد قشٍّ عُشٍّ لم يقربه منقار آخر منذ أن حرقه فوران رأسه ذات يوم. "كأن أحدا كان هنا"، يقولها محاولا أن يستقيم على رجله الأخرى كي يعيد ترتيب أعواد العُشِّ التي نثرتها مناقير هبّت ذات انفجارِ فَخٍّ لتستولي على ما كانا جمعاه من حَبٍّ. تعود إلى أنفه رائحة أليفة كأن حرارة جسمها مازالت تدب في فراغ العش حوله. تتخلل الرائحة رأسه فيبرد فوران البركان الذي كان، أو أنه يهدأ من جراء البرد والسلام اللذين استجابا لما بدأ يطرأ عليه، فطغيا على كل شيء آخر، وأرديا البركان لعبة بارت مع مرور الوقت.

لم يكن يظن أن بإمكانه العودة إلى سلامه أو التخلص من نظرته التي عرجت. لكنه الآن يدرك أنه مازال كما هو، لا ينقصه شيء؛ بل أن تأمله أكسبه قوة وأبصره ما لم يلاحظه من قبل. أدرك نفسه في كامل امتلائها، وأنه ما عليه إلا أن يعدّل نظرته فتستوي الحياة أمام ناظريه، كما هي دائما، مليئة بالوعود التي بإمكانه أن يساعدها على التحقق. وكأن ترتيب أعواد العش رتّب حياته من جديد، فها هو يخرج لأول مرة من عشه، متناسيا باب الشرفة الذي أُغْلِقَ للأبد في وجهه ووجه رفاقه، وفَصَلَهم عن الاتّصال بحياة أخرى بالداخل، باب كان بإمكانه أن يفتح مشاريع الحميمية والدفء. لكن

سكان الدار فضلوا العزلة وحياتهم المنغلقة، واكتفوا بتحنيط نسر رافعا جناحيه في براح الصالة رمزا لحُرِّيَّةٍ لم تكن له إلا عندما كان شامخا في أعالي النسيم.

يحسُّ بدفقة الحياة في منقاره عندما يعاند انكسار رجله ويخرج من فوهة العش. يُصرُّ على أن يعاود الإمساك بتلابيب الحياة المتشتّتة في ذرّات النسيم، فلا تملك شيئا حيال إصراره وتنصاع له كأن مشروع قانون مرَّ في مجلس الشعب يخوِّل له امتلاك كل شيء. لا بأس مادام الأمر مجرد تشبيه، يقولها مسلِّما بتقاطع جوانب اللغة والحالات. لا بأس، ويواصل الإمساك بكل ما كان قد ضيعه بُركانُه أو أَجَّلَه. يريد أن يكتب برجله المكسورة سيمفونية الحركة، أن يحوّل مسرحية عبثية كانت تستولي على رقعة نظره إلى مسرحية مفعمة بالحياة والوعود. تعانده العصافير المتكاسلة على حواف الشرفة، العصافير التي تتجاهل الإشراق وكأنه لا يعنيها في شيء، وكأنه لا يخاطبها أو يستجوبها أو يستحثها للنهوض لتنال نصيبا من رزق الطير في هذا الصباح الباسم.

عندما ينظر من الشرفة، تفزعه آثار الدمار هنا وهناك، وكأنَّ حربا عالمية ثالثة اندلعت أثناء انغلاقه داخل عُشِّه. لكنه لا يسمح للانكسار بمعاودة الاستيلاء عليه عندما يبصر الأعضاء البشرية المتناثرة في الجوار أو أسطح المنازل المحترقة أو نظرات الوجوه المستسلمة. تعاوده أغاني قديمة عن النصر والوطن الأكبر والأمَّة، لكنه سرعان ما يدرك أن هذه الأفكار لا تختلف كثيرا عن أرض الميعاد، فيفكِّر في ضفر أغنية فردية تتغنى بالإرادة

والمستقبل والحياة، إرادة الجميع ومستقبلهم وحياتهم، مع التركيـــز علـــى نفسه، لأنه هو الوحيد الذي بإمكانه أن يُخرج إمكاناته إلى براح الحياة.

يبثُّ نظرته في آذان الطيور. لكنهم ينظرون له نظرةً متسوِّلةً، كمن تطلب حَبًّا وماء، وهو لا يدري طعم الحب، ولا رقص الماء في الليالي الـــشتوية في الميدان – لكن لا وقت يبقى اليوم على حافة الشرفة. يصرخ في وجوههم: "شرفة الدار أُغلقت، فلا تنسوا الحقول المترامية في تلك الأرجاء". لا يرى تحركا ولا دبيبا، وكأنه يبثُّ بشارته بحروف لا يفقهها القوم أو أن آذانهـــم مجلس أمن لا يسمع إلا ما كان قد خطّه بعيدا عن أي سياق. فينظر للطيور في شفقة أو أسى، لكنه يدرك أن ما يحتاجه سُرِقَ من سوق الشرفة، أو أن هذه الشرفة ما هي إلا مخيّم مؤقت خيّم فيه حتى يرتب أفكاره لمعاودة الحياة والالتحام بمستقبل سيكون بالتأكيد له طالما أنه وضعه نُصْبَ عينيه.

ينظر حوله ليملأ عينيه من منظر يختزنه في رأسه الصغيرة علّه يذكِّره في قابل الأيام بلزوم الحياة. ثم يواصل سَنَّ رجله المكـــسورة، عـــلَّ صـــفحة العصافير تلتقط الحرف، أو تدرك حركةً لاحت في مفاصل الأرجل. نبرات سيمفونية تدبُّ في الخفاء، ربما في رجله المكسورة، وربما في الصفحة الـــتي رسمها في الأفق، وربما في أشتات الطعام التي تحلم بها العـــصافير الكـــسالى. لكنها تدب، يكاد يسمعها. فيلقي بالرجل المكسورة في وجـــه العـــصافير، ويبدأ في الحركة كأن شيئا لا ينقصه.

حذاء بني

قَدِمَ نحونا. أخذ يحدق فينا، ثم على الرخام حولنا، ثم تحت فتحات السور الفاصل بين مَصَلّى الرجال ومَصَلّى النساء. ربما لم تسعفه نظارته في أن يبصر ما يريده. ابتعد عنا بنظرته اللامبالية التي لا تَظْهَرُ بوضوح بعد أن أُطْفِئَتْ معظم المصابيح في الساحة. اتَّجَه إلى درجات السلم الثلاث لباب عمر بن الخطاب. شرع يتفرس في الأحذية أسفل السلم. دار بعينيه يمينا وشمالا. خلع شبشبه البلاستيكي. تركه على الأرضية وواصل تَفَرُّسَه. وضع في قدمه اليمنى فردةَ حذاء بُنّيٍّ، ثم واصل البحث عن الفردة اليسرى. وعندما لم يجدْ شيئا، صعد إلى بَسْطَةِ السُّلَّمِ. دخل في البسطة. اختفى لدقيقة أو دقيقتين، ثم خرج إلى أكوام الأحذية من جديد. كنتُ أود أن أنهض لأقف في موضع يسمح لي برؤية حركاته داخل البسطة، لكنني خشيتُ أن يتوقَّفَ فأحرم نفسي من رؤيته. خلع الحذاء البُنّيَّ وارتدى شبشبه البلاستيكي. يبدو أنه أصابه قَدْرٌ من الكدر. فارتدى نظراته اللامبالية من جديد وانصرف إلى باب آخر، وما لبث أن عاد أدراجه إلى باب عمر بن الخطاب. شحذَ نظراته. خلع شبشبه. أخرج كيسا فارغا من أحد الكيسين الأبيضين اللذين

يتدليان من يديه ولا يكشفان عما بهما. وضع شبشبه في الكيس وارتدى فردة الحذاء البني. جاء نحونا مرة أخرى. أمسكتُ حذائي ووضعتُه بجانبي على الْمَفْرَشِ الذي أفترشه أنا وأسرتي على الرخام. يبدو أنه أدرك مغزى حركتي، فلقد ابتعد عنا في التَّوِّ راجعا إلى كومة الأحذية. أمسك شبشبا بلاستيكيا ووضعه بجانب شبشبه في الكيس. عاود البحث عن الحذاء البني. دخل إلى أرفف الأحذية داخل البسطة. لم يجد الفردة الأخرى بالتأكيد، فها هو يخرج وقدمه تحترق لهفة على فردة لم تلمسها. تتسارع حركة عينيه عندما يرى عامل النظافة مُقْبِلا بعربة اليد التي يجمع فيها القمامة. ينتقي حذاء ثالثا ويسد به الفراغ المتبقي من الكيس. عندما يجد عامل النظافة ينتقل إلى الأرفف على البسطة ليفرغ ما بها في العربة، يهرع للداخل. يبدو أنه كان من قبل يرى حُرْمَةً في أَخْذِ الأحذية التي على الأرفف، وعندما تمتد لها يد العامل تنْزاح من أمام عينيه الحرمةَ التي أبصرها من قبل. يبحث عن الفردة البنية. وعندما لا يجد شيئا ينتقي حذاء جلديا ويضعه في أحد الكيسين الأبيضين اللذين انتفخا كثيرا.

تطلب البنت الكبرى الانصراف. فنُحثُّها على مواصلة اللعبِ حتى نُكْمِلَ المشهدَ. تصرخ بأنها متعبة. ننصرف ونتركه متجها إلى الباب المجاور دون أن تبرحه نظراته اللامبالية أو يكفَّ عن البحث.

شهادة ميلاد

الشمس تغلي فوق رأسي. السائق الوحيد الذي أبطأ سرعته وتوقف طلب ضعفَ الأجرة. ها هي سيارة أخرى. يومض المصباح الأمامي جهة اليمين.... لا يوجد غطاء للباب من الداخل. أفتح الزجاج. حرارة تيار هواء أفضل من الموت في "حاوية"....

هل أنت مدرس هناك؟ المرء لا يدري ماذا يفعل. ابنتي لها من السنوات أربع. حَبَتْ ومَشَتْ وتكلَّمَتْ بعيدا عني. لا أستطيع أن أرسل لها ولزوجتي تأشيرةً. يقولون لابد أن أكون حاصلا على بكالوريوس. وأنا ولدتُ وعشتُ هنا. عشتُ عشرَ سنوات قبل الحرب. وعند قيام الحرب ذهبت إلى اليمن. ضاعت شهادة ميلادي. ليست لدي صورة منها لأستخرج نسخة من "جدة". ضاعت شهادة الابتدائي والمتوسطة في اليمن. اتصلت بجدتي لتبحث عنها لكنها لم تجد شيئا. كان الإنجليزي مشكلتي الوحيدة. لا أعرف كيف أفكُّ الحروف عندما تشتبك. لم أستطع أن أكمل "أولى ثانوي". تعلمتُ الآن اللغة الإنجليزية من الشارع. تقرأ على سيارات النقل مثلا كلمة بيبسي بالإنجليزي والعربي فتعرف الحروف. لكن حرف **D** مثلا عندما تكتبه كبيرا تكون نصف دائرته جهة اليمين، وعندما تكتبه صغيرا تكون جهة اليسار. حرف يربكك. قالوا لي اذهب إلى مصر أو الأردن أو سوريا لتشتري شهادة. كل ما أملكه هذه السيارة. توصيلة بعشرة ريالات. توصيلة بخمسة. أرسل شهريا مصاريف زوجتي وابنتي. ومصاريفي هنا. كيف أسافر وأنتظر لأقيم في فندق وأبحث عن أحد يعطيني شهادة؟ كيف سأدفع ثمنها. عملت خبّازا، بائعا، فنِّيًا في محل جوالات، عاملا في البناء. أصلح الجوالات والحاسبات في بيتي. حتى في اليمن لا أملك شيئا. أدفع إيجارا هنا وإيجارا هناك

- اتجه يمينا من تلك البوابة....

لا تقلق. أنا سائق محترف. عملتُ في اليمن أثناء الحرب "سائق طريق". لو "تصرّفتَ" لي في شهادة لثانية ثانوي لن أنسى لك هذا الجميل. كلما أذهب للتقديم في معهد يطلبون الشهادة الثانوية. وبحثت عن تأشيرة لزوجتي في السوق السوداء، 18 ألفا على الأقل. من أين لي بها؟ تسألني عن الجنسية! لا تحق لي. كان عليّ أن أظل طوال عمري هنا دون أن أسافر للخارج حتى أحصل عليها. لكننا عندما قامت الحرب لم نفكر في ذلك. حتى شهادة الميلاد التي تثبت ولادتي هنا ضاعت مني. إن خَدَمْتَني في هذا الموضوع سأُحْضِرُ لك ابنتي لتُقَبِّلَكَ. هل تحبُّ سماع الأغاني؟ يمكنني أن أحمّل لك كارت ذاكرة لجوالك بكل أغاني الطرب الأصيل. والله لن أنسى لك هذا الجميل أبدا. لا، شهادة المتوسطة والشهادة الثانوية فقط هي التي تستخرج من الوزارة. أعرف أن مصريين كثيرين يعملون في مناصب عالية في المدارس هنا. هل أنتظر إلى أن تكبر ابنتي ولا تعرفني؟ لا أتعجل. خُذْ وقتك. لكن لا تخذلني. يضع سره في أضعف خلقه...

عندما قال ذلك لم أستطع أن أحدد إن كان يتكلم عني أم يتكلم عن نفسه. لم أعرف بماذا أردُّ عليه . لكنه أصرَّ على الاتصال لاحقا حتى ولو بعد شهور، فمازال هذا العام الدراسي لم ينته. وإذا حصل على الشهادة في نهايته يمكنه التقدم للشهادة الثانوية بالدراسة الليلية في العام القادم. تمنيتُ له اللقاء بابنته. أصرَّ على الاتصال. طلبت منه رقم جواله. سجلته. أصر على أن أرن عليه كي يسجل رقمي. تعللت بأنني لا أرى شيئا في الشمس بعد خروجي من السيارة. وَعَدْتُه وأنا أعي بأني سأخلف الوعد، سأرن عليه لكي يسجل رقمي. لم أرنَّ عليه. سلمتُ عليه بحرارة بعد أن أعطيته أجرته. ربنا يُوَفِّقُ. تواريتُ سريعا في ردهات المبنى الجديد لأحتمي من الشمس التي ازداد لهيبها وسط الصحراء وأنا أختلق أعذارا لا أقوى على الإمساك بها.

شمس النهار"1"

أخرجُ من الكهف. أجلسُ على جبل الصقور أمامه. ألقي التحية بحذر على أشعة الشمس المستيقظة منذرة. أتلو عليها صلاة الشروق خوفًا. تأتي البنت بسلة التمر والخبز الجاف. أقضم بشراهة وأشرب جرعة من عصير التمر. أداعب الصقر الذي ينظر إليّ بطرف عينيه وكأنه يراقب ما أفعله. لابد. ينتقل إلى جنبي الآخر في عناد، فأرسم ابتسامة على وجهي وأهبط المنحدَرَ الجبلي إلى طرف الغابة....

أهوي ببلطتي على تلك الشجرة التي لا تريد أن تنقطع. كل يوم أجيء إليها لأنحت في جذعها ثقبا. لابد أن أنقلها إلى أعلى الجبل. سأحفر لجذعها ثقبا في الصخر فتنشر الظل أمام الكهف لتبعد قدرا من أشعة رع المهلكة. تتطاير نتفة من خشبها إلى عيني. لا بأس. عندما أنقلها ستكون عيني قد برئت. هيلا هوب....

تنفجر أصوات رجال المعبد في الغابة. لابد أن نذهب للمعبد لنصلي لرع.... لا أستطيع أن أمسك سوطهم الذي انهال على جسدي وأردَّ الضربات. الكثرة تغلب الشجاعةَ. سيحبسونني في ظلام سجن المعبد السفلي... أفارق الشجرة التي يتلهف الكهف إلى الأنس بها أمامه. تعلو أصوات رجال المعبد بالتراتيل. تفرقع السياط. ننتظم دون إعداد. تتباعد أصوات رجال المعبد خلفنا في عمق الغابة... ألا يحيط رع بكل أشجار الغابة فوقنا؟! هل يلزم أن نعبده في معبد لا يدخله أصلا؟... تتباعد أصواتهم وكأن سياطهم تطاولت لتنضم لرع في أعالي الشجر وها هي

1 لقب يطلق على رع في وقت الظهر.

الطيور تنوح من السياط.

يتلقفنا حُرَّاسُ المعبد بعيون متجهمة ربما كان فيها قدر من الخبث. يحددون الصلوات التي لابد أن يتلوها كل منا. من عليه أن يتلو سبعا. من عليه أن يتلو عشرا. يلصقون أعداد الصلوات على جباهنا كي لا يتلو أحد صلاة غير صلاته أو ينقص صلاة. علينا أن نبدأ صلاتنا بـ "مس رع"[2] حتى تدب الحرارة في أوصال شمس وليدة في الصباح لتنقض على أبواب كهوفنا في الظهر فلا يبرحها أحد. أرفع يدي إلى صورة رع المرسومة بألوان البوص الذي نزرعه عند طرف الغابة.... كنا نظن أن الوحوش هي التي تكسّر أعواد الزرع ليلا بعدما يخضرّ. فلا نجد عندما نجمع المحصول في "بشنش"[3] إلا نصفه أو أقل.... أبصر عرقي في الألوان. تعود إلى رأسي الشجرة المعاندة التي تراوغ القطع، كأن أحجار الجرانيت تسري في لبها لتصد ضربات بلطتي. يمتزج عرق الألوان بآهات أجاهد في كتمها. يُطِلُّ عَلَيَّ الصقرُ من صورة حورس منذرا. تصر الصلوات، التي لا تراعي جسدا، على فضح آهاتي، فتضطرب صلواتي. يختلط عليّ العد، فلا أعرف إن كنت صليت تسعا أو عشرا. يفيقني سوطٌ ينقضُّ على ظهري ويسوقني إلى السجن الملحق بالمعبد.

تتعثر قدماي في أحجار مجلس الحراس أمام باب السجن. يُغلَق الباب في جبروت. يقتادني المراقب إلى الركن بجانب النول. أجد من سبقني أو سبقوني قد ندّوا الألياف بالماء وفتلوها. أجلس القرفصاء. أمسك الخيوط. يحز ثوب القش الذي ألبسه في جسمي عندما تلمس يدي خيوط الكتان. لابد أن

2 شهر مسري من الشهور الفرعونية مشتق من "مس رع" التي تعني مولد رع أي الشمس.
3 شهر من الشهور الفرعونية يتم فيه جمع المحصول من الغيط.

أنسج ثوب الحاكم. أبدأ بالخيوط الحمراء4. أتلو عليها التمائم التي يلقنني المراقب إياها. تنكب الأيادي على الخيوط. فقط صوت الأنفاس يقطع السكون. أنتقي الخيوط الزرقاء بحذر.... فإذا لم أراعِ ضفرها بالخيوط الحمراء جيدا سيُدَب المخْيَط في عيني ولن أرى بعدها شيئا وستنهال عليّ السياط لأنني لن أرى.... عندما أتيقن من حسن ضفرهما، أمسك الخيوط السوداء مبتهلا. أتلو عليها تراتيل الخير. تتضارب الألوان في عيني وتتمازج، كأن مصباح الزيت فوق رأسي بالحائط من أقرباء تلك الشجرة المعاندة. أنظر إلى النافذة الكبيرة المغلقة.... كلما أجيء إلى هنا أجدها مغلقة. لا أعرف السبب في إغلاقها على الدوام في وجه أشعة شمس قد تساعد هذا المصباح العجوز.... أفرك عيني بكفي. أهش ما ترسب أمامهما من غبش. أكتم ابتسامة ساخرة عندما تمتد يدي إلى الخيوط البيضاء.... أود أن أدعكها بأحجار أرضية السجن أو أنثر فيها شظايا تلك الشجرة التي طرفت عيني. يخطر لي عندما يخرج المراقب أن أطفئ المصباح وأتبول على الخيوط البيضاء. أخبط رأسي بيدي. لا يخفى عليه شيء. يعاقب الواحد منا على خطايا لم يقرها، فما بالك بخطيئة كبرى!...

يصل لمسامعي كلامُ الحرّاس بالخارج عن سنين عجاف ستجيء. أستغلُّ غيابَ المراقب. أنسج الخيوط الخضراء بلهوجة متعمدا. على الأقل لن يلاحظ شيئا. سأسلمه الثوب كاملا. أنظر للمصباح مبتسما وأشكر له عجزه. فلن يتبين المراقب شيئا في هذا الضوء الخافت. أُخْرِجُ من تحت ثوبي كفَّ الطالع الذي أحضرتُه معي وتَلَوْتُ عليه تعاويذي. أخبِّئ كفَّهم مكانه. أسلِّمُ المراقبَ الثوبَ. ينادي حارسا ليصطحبني إلى المعبد حتى أعيدَ صلواتي. يحذِّرُني الحارسُ من تكرار الخطأ. فهذه المرة اكتفوا بنسج الثوب وإذا تكرر

4 يدل اللون الأحمر في الثقافة الفرعونية على تمائم الشر والأخضر على تمام الصحة والعافية والأزرق على منع الحسد وطرد الأرواح الشريرة والأسود على جلب الحظ والخير والأبيض على الطهارة والخلاص.

خطئي سيزجُّون بي في السجن السُفلي.... لــن أقــضي اليــوم كلــه في الصلوات وأترك تلك الشجرة تهزمني.

عندما أفرغ من آخر صلاة يقتادني حارسٌ آخرُ إلى المَطْهَر. يوقفني تحت قرص الشمس حتى تذيب ما ترسب في رأسي. ينقــر صــقرٌ رع في جمجمتي وكأنه يساعد القُرْصَ في الإذابة إلى آخر قطرة. أُخْرِجُ الشجرةَ بين النقرات من رأسي وأخبئها في سرداب عيني. يطلقون قدمي عندما تكــف الرأس عن التقطير. لا أحس بحركة قدميَّ. ولكنني بعد أن أبتعد عن أعينهم أفرُّ إلى تلك الشجرة.... أين تلك الديدان الكريهة التي تأكل عيدان القمح والشعير؟ لِمَ لا تأتيَ لتأكل ما تبقّى من مَقْطَعِ هــذه الــشجرة؟ تــضحك العصافير والفئران ساخرة في أذني: نحن لا نأكل إلا المحاصيل في الأجــران، أنت الذي عليك أن تقطع شجرتك.... أرتمي تحت جذعها لأستريح ساعة عل غليان جمجمتي يخف قليلا...

تتناوش في رأسي الديدان والطيور والفئران. يهــدؤون ويقفــون للفرجة عندما تهمُّ بقراتٌ عجافٌ بأكلِ بقرات سمان. تــتملص الــسمان، يحاولن أن يهربن. تصطادهن العجاف في سجنِ المعبدً. لا يظهر المراقــب في أي ركن. عندما تمتلئ بطون العجاف يتطايرن في فضاء السجن، يقفزن من النافذة التي تنكسر. يفتح الهواء مَنْفَذًا لأشعَّة الشمس بين الأغصان. تضرب الأشعةُ عيني. أصحو فَزِعًا على أصوات بعيدة تدبُّ من كل فَجٍّ عميقٍ....

تتعالى أصواتُ رجال المعبد. "حيَّ على العمل". يباغتني النداءُ.... دائما يقولون لنا إن الغابة في الليل لَمِبيتِ رع. لا يسمحون لنا بالمبيت فيها. علينا دائما أن نسارعَ إلى كهوفنا قبلَ أن يبتلع الجبل آخر شعاع.... علينا الآن أن نظل طوال الليل نحرس غيطان القمح والشعير. أستبشر. سأتعقب

تلك الديدان بالليل والنهار. لن أتركها تأكل العيدان كي أجد لي نصيبًا عندما أسلِّمُ المحصولَ للكيّالين.

عندما يذهب رجال المعبد للنوم ويتركوننا حارسين، أَنْقَضُّ على جذع الشجرة بالبلطة. يبدو أنها لا تقع إلا ليلا. أتغنى طربا عندما أسمع دويَّ سقوطها. أتسلل في خفاء الليل إلى جيراني بالكهف في غيطانهم. ينقلون معي الشجرة إلى عتبة الكهف.... "إن كنتُ أنا سأظل بالغابة ليل نهار، فلابد أن تجد زوجتي وأطفالي شجرة ولو يابسة تظلهم من نار رع التي لابد ستزداد كي تستعجل حصاد القمح".... نشرب على عجل أقداح شراب "الخوت"5. أود لو أن ماء النهر تحول "خوتا" لأرش به أعواد القمح لتصد تلك الديدان التي لا تخشى أحدا. ثم نعود، كلٌّ إلى غيطه.

يباغتني التعب بالرغم من انتصاري وفرحي. أريح رأسي على حافة الغيط.... يتوهج نور أخضر في الغيط. مصباح أزرق على حافَّته يبخُّ سوادا على بقرة عجفاء تأكل أعواد القمح. خوت أحمر يتساقط على السنابل. بقرة سمينة تهرول عند السفح مبتعدة. المراقِب يفكُّ الثوبَ ليحشر فيه ألوانا لا أتبيَّنُها. أخطئُ في صلواتي. الصقر لا ينقر في رأسي، بل يهز بمنقاره سنابل القمح. طيور تأكل من رأسي ورأس جيراني. تمرح بقرات عجاف وسط غيطان القمح. يهبط قرص الشمس إلى حواف السنابل ويقترب من عيني. تدوس بقرة على قدمي. يقفز رمشاي متراجعين على صوت ارتطام.... رجال الحاكم يلقون الشجرة من على الجبل. ينفونني خارج الغابة لأحرس الغيطان عند حواف الأحراش. ألقي نظرة أخيرة على الكهف. أفرُّ باحثا عَمَّنْ يفسِّرُ لي حُلْمِي.

---

5 التوت بالفرعونية.

راعي

كان يهش بعصاه على غنم في مخيلته ويشعل نارا في عز الصيف ليتقي شر ذئاب شريدة. رأى سرب قافلة تجارية. سايرهم إلى حين. وعندما لم يعطوه شيئا تركهم نادما على ما ضيعه معهم وعلى ما قد يكون ضاع من الحملان. ودار بقطيعه كي لا يعاقبه سيده على ما ضيّعه، وكأنه كان الحارس في الصحراء أو أنه كان كل الذئاب. سمع صوتا في الكهف أعلى التل كأنه يناجي الهواء أو يسامر النجوم المتناثرة في أفق السماء. صعد إليه علّه يجد عنده مأكلا أو مشربا. أصدر صوتا يوحي بالاقتراب ويطمئن من بالكهف.

– أهلا بك. خذ ما تحتاجه فمعي ما يكفي الكلّ.

– شكرا لك كرمك. شكرا لك بشاشتك.

تحدثا كثيرا عن القافلة التي كانت تسير من هنا لتوها وكأن حربا لا تظهر في الأفق تدس روائحها عند أنف النذير، حرب كأنها الإبادة ورحلة الشتاء في مستهل دربها.

"لا تقلق. فقط انظر للغة الطير وتسمّع لغة الصحراء وما في رحمها من أجنّة. ولا تجعل العلامات تفوتك"، قالها مَنْ بالكهف وعاد إلى تأمله. فخرج الراعي راضيا مستبشرا حاملا ما يكفيه من الأكل والشرب وهو يدعو لمن بالكهف.

هل كان في نفس المكان بالأمس أم أن جبل القرود قد تغيّر مكانه؟ لم يستطع الراعي أن يحسم شيئا. فقط أذهلته كثرة القوافل الرابضة وحولها جنود متعددو الأشكال والألوان. وقف يتأمل التل. لم يجد أي آثار لصوت أو حركة أو نَفَسٍ في الكهف. وقف على بابه يسترجع ذكرياته وحميمية

لقائه بمن في الكهف بالأمس. وكأنه أخذ يقلده، ألقى نظرة على أطـــلال حروف لغة الصحراء، ثم وقف في صمت يسامر نجوم الـــسماء وينـــصت همس الريح محاولا أن يستقرئ حروفها. وقبل أن يستغرق في تأمله أو يفسر حرفين من لغة الريح، لسع ظهره سوطٌ وصوتٌ ألهب أذنيه.

– قم أيها الوثني من هنا. مالك تتبرك بآثار كهفٍ ليس بشيء!!!

لم يفهم لغة الرجل وثار للسعة الصوت. "ماله يضرب هكذا وكأن كل من في هذا التل عبيد له!؟" تحايل إلى أن صار السوط في متناول يده. نتشه بسرعة وانهال على الجاني ليعلمه درسا في احترام التأمل ولغة الريح، ثم رش قطرات من الماء على باب الكهف وترك طعاما وشرابا للفئران والقطط التي كانت تأتي كل يوم للكهف لتقتات على ما يطعمها به مَنْ به.

عندما نزل وجد على مبعدة من أسفل التل رجلا يتفاوض مع أكـــابر القرية على إعادة حفر الآبار التي ردمتها الأعاصير ودثرها الـــسفن الـــتي رست على مائها منذ سنين ولّت، بما فيها من حياة وحولها من خضرة. قال المتفاوض: "سأحفر لكم الآبار دون أن تدفعوا شيئا. وسأهبكم ربـــع المـــاء وأبيع أنا ما تبقّى." ثارت همهمة وسرعان ما سكنت الأجساد إلى الراحـــة والكسل "اللذيذ" وفرحوا بالماء بدون مقابل مادام حافرها سيأخذ ما تبقى فقط.

في أثناء الحفر عادت القافلة بربع ما كانت عليه من بـــشر وأحمـــال وتجارة. قُتِل باقي أفرادها على حدود الحرب في رحلة الشتاء ونُهِبَت تجارتها ودوابها. فأخذ الراعي يهرول في أرجاء القرية يستحث الأسماع أو يغتصب الأنظار. لكن أحدا لم يستمع إلى صوته أو يؤول رؤياه.

خروج

حركة تسحبه للأمام وتردّه للوراء وهو متأرجح بين السحب والــردّ، كأنه أضعف من الرياح التي تناوش الصخر، ولا يستطيع الطيران. يحس بأن حزام الأمان يأكل في صدره أو يكسّره وكأنه ينتقم أو أنه يخفّف انفجــارا كاد يفتك به. ينظر إلى أجزاء العربة المبعثرة أمامه في ذهول كأنه لا يصدق أن أسابيع أمضاها في البحث عنها بين المعارض سيتم إلغاؤها بلا إذن وكأنها الخواء، كأنه لا يصدّق أن سيارة اشتراها أوّل أمس ودفع فيها كل ما يملك واقترض من زميل له ستنفجر هكذا دون سابق إنذار أو شفقة عليه. لكنه عندما نظر إلى أقدامه ووجد نفسه واقفا منتصبا كأنه شجرة تزهو بالخضرة وحركة الريح، حمد الله كثيرا ثم صمت. رأى أناسا يسلرعون إلى مفتـــاح سيارته فيفصلونها ورأى أيادي تمتد إلى البطّارية فتفصلها. وضع أحد الذين توقفوا – ليشاهدوا سيارة تنجرف عن الطريق كأنها الغضب – يده علـــى كتفه قائلا: "حمدا لله على السلامة"، ثم سحبه من يده وأجلسه على صخرة ترتفع عن الرصيف قليلا. ازدادت الهمهمات حوله ومن يستفسر عن سبب الحادث. أشار فقط بعينيه إلى السيارة كأنه يقول لهم: "انظروا إليهـــا وإلى الطريق. لم يصطدم بي أحد. لم أصطدم بأحد. فقط سيارة فاجأها رغبـــة في الخروج فخرجت كأنها تضرب موعدا لنفسها خارج الطريق أو أنها ملّـــت كل هذا الانتظام". جلس واضعا يديه على رأسه يستر بها وجهه كأنه يحاول أن يهدئ رعشة سيطرت عليه، فلم تستطع يداه أن تثبتا على حال وكـــأن شفاهه الحائرة التي تترجرج دون أن تستطيع أن تجمّع حرفا واحدا أزادت ارتعاشه، فظلّ صامتا لا يستطيع أن يقول شيئا ولا يستطيع أن يقف تقديرا لمن توقفوا ليسألوا عنه. أخذ يفكّر في تفسير منطقي يقنع به ضابط المـــرور

عندما يجيء. لن يستطيع أن يقول له إن السيارة راودها نزوة فلبّت رغبتها عن طيب خاطر. لن يستطيع أن يقول له إن السيّارة عندما ضرب لها المطر موعدا فرحت به وأخذت تتراقص في شارع خال ثم خرجت عنه تبحث عن عيون تستمتع بالرقص. لن يستطيع أن يقول له إن السيارة ملّت السائق أو أنها حنّت إلى سائق قديم أو أنها اكتشفت خطأها عندما ارتاحت في البداية لسائق لا تعرفه. لن يقول له إن السيّارة ربما وجدت نفسها تستجيب لدغدغة قدمه على دوّاسة البنزين فاستجابت له في وجل ولكنّها اكتشف أن القدم ليست منها أو أن هذي القدم كانت قدما رملية لا تقوى على شيء أو أنها اكتشفت أن القدم تدوس عليها بالحذاء أو تدوس في هيجان لتستحلب سرعة لا تبالي بتهيؤها، فثارت لترقها العارض وأخذت تجري بعيدا عن الشارع علّها تختبئ عن كل العيون إلى أن تستجمع ثقتها بنفسها. ربما يكون مقنعا إن الإطار انفجر من تلقاء ذاته، بالرغم من كونه جديدا كباقي الإطارات وبالرغم من تركيب أقمشة فرامل جديدة. لكنه لن يستطيع أن يضيف إن الإطار ربما انفجر من كثرة الضغط داخله وكأن ضغطا من الداخل ولهيب الإسفلت من الخارج تعاونا كي يهدما إطارا لا يأبه بهما أو يخشاهما.

سمع صوت سيارة إسعاف ووجد شخصا لا يعرفه يطلب منه أوراق السيارة ليعطيها لضابط المرور، هامسا في أذنه بأنه سيقول إن الإطار انفجر. ووجد أناسا يحملونه على نقّالة الإسعاف، ووجد نفسه يترك جسده ليتزلق إلى باطن السيارة. تختلط الأشياء أمام عينيه، فلا يعرف إن كان هذا الوجه وجه ممرض أم أنه وجه من وجوه حميمة يألفها لكنه لا يحسّ بها الآن بجانبه. تتباعد الأصوات وتعلو سارينة الإسعاف علّ سائقا يفسح الطريق لها دون جدوى. تطنّ الأصوات في أذنيه وتتداخل الصور وكأنه أُغمي عليه مؤقتا.

"خير العمل"!!

"حي على خير العمل". توكلنا على الله. أصلي الفجر أولا. لا يمكنني الخروج قبله، فالحاكم بأمره أصدر سجلا يمنع خروجنا إلى الطرقات من الغروب إلى الفجر. عندما أتيقن من تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أخرج وأنادي على جاري. اعتدنا على الخروج سويا للصيد. أضع الشبكة في المشنَّة وأمسكهما وراء ظهري. نصل النهر. هل التقاء الاثنين يعتبر اجتماعا؟ ربما لا تقول اللغة ذلك، وربما تقول. لا أدري على وجه اليقين. فلنجتنب مواضع الشبهات. كان قد حرّم الاجتماع على النيل للفُرجة، فهل يكون جلوسنا نحن الاثنين اجتماعا؟ وحتى وإن قالت اللغة لا، من أدراني إن كان السمك يتفرج عليّ أو أنني أتفرَّج عليه؟ قضيَّةٌ لا أستطيع الحسم فيها، لكن ربما جاء من رجاله من يستطيع الحسم. فلنجتنب الشبهة. لا نجلس سويا في موضع واحد. نحرص على التباعد. أراه في الغبش يلقي شبكته في النيل. أتخير موضعا واطئا حتى أقترب من بقعة عميقة. ألقي شبكتي. أترنَّم ببعض الموشَّحات الأندلسية، وربما أيضا يطرب لها السمك فيهيم سالكا درب المياه إلى شبكتي. قبل أن تسطع أشعة الشمس، أسحب الشبكة مستبشرا. لا أتمالك نفسي عندما أحسُّ بثقل الشبكة فيعلو ترنيمي.

الحمد لله الذي رزقنا من غير حول ولا قوة. الشبكة مليئة بالأمشاط والقراميط. أتلفَّتُ حولي. أتيقن من عدم وجود أحد على البعد، إلا تلك الأشجار، لا أظن أن أحدا يجلس ورائها في الصباح، يُقْبِلُ عليها المزارعون وقت الغداء ليستظلُّوا بها ويرتاحوا قليلا ساعة تناول طعامهم. أرصّ الأمشاط بجانب بعضها البعض والقراميط في الجانب الآخر من المشنة.

ينفجر صوت من وراء الأشجار. يشكم فمي بالشكيمة كأنني حمار لابد من تلجيمه، ثم يهوي بالعصا على رأسي. ولكنني قبل أن يقيِّد يديّ أباغته وأقذف بنفسي في الماء. قد أغرق، لكن على الأقل هناك احتمالا أن أنجو. أبصر جاري يعدو بذراعيه في الماء أمامي. لا أضع أمام عيني سوى الشاطئ المقابل. يتَّسع عرض النيل هنا قليلا، لكن لا بأس، هل هناك أغلى من الحياة؟ لو توانيت قليلا لكان رجل الحاكم اقتادني إلى حيث لا أدري، وربما لن يكون لي وجود في التو، فعندما بلّغ أحد البصَّاصين رجاله عن ابن عمي الذي أكل الجرجير عندما اشتهته نفسه، قطعوا رأسه في الحال أمام أعين الناس. ما ذنبي في أن القراميط جاءت إلى شبكتي؟ ولكنه ربما سمع موشَّحاتي! لن يرى لي عذرا.

لهاث يوشك أن يثقل بي فيتلقفني باطن النيل لأعود إليه طعاما بدلا من السمك الذي اصطدته منه اليوم. عندما أصل إلى ذلك الشاطئ سأستريح ليهدأ لهاثي وتعبي على رسلهما، أما الآن فلا مفر من صراع الماء المعاند. كان وحده وكان بإمكاني أنا وجاري أن نجتمع عليه ونقتله، تقوى أيدينا بمرارة الأيام فتلوي رقبته وتنتزع رأسه لتلقيها في بطن النيل، لا أحد رأى لا

أحد علم، لكنهم ربما يعدمون كل الأسماك في النهر وربما النهرَ ذاته، الفرار أسلم طريقة، فساعتها لن يجد الأهل والجيران ما يأكلونه. لا بأس، الفـــرار الفرار. هيا يا ذراعيّ لا تخذلاني، لا تخذلا عبدا توكَّل علـــى الله فجـــاء إلى النهر، ها هو الشاطئ يقترب، وساعتها سأترككما تنعمـــان بالراحـــة، لا تخذلاني ولن أخذلكم، دقائق معدودة ونكون على الشاطئ الآخر، يا معين، يا من أنجيت يونس من بطن الحوت أنجني. الحمد لله. أتمسك بأغصان شجرة الصفصاف التي تفترش الماء بجانب الشط. لا يعقل أن تخور قواي وأنا على بعد مترين أو ثلاثة من الشاطئ، يا الله، تماسك يا رجل، ألا ترى الأغصان مرحبة؟ ينكفئ وجهي على حبات الرمال، لا يهم، عندما يتوقـــف لهـــاثي وتنعم ذراعاي سأغتسل بماء النيل...

توقظني يد. حمدا لله على سلامتك. وسلامتك يا جاري العزيز. يمتـــد النيل خلفنا، وتمتد الرمال أمامنا إلى أن تصطدم بالتل. هـــل اجتماعنـــا في الصحراء يستوجب القتل؟ لن نستطيع العودة يا صاحبي، ولن ننجـــو إذا تفرقنا في الصحراء، فلنظلَّ سويًّا، نتوغَّل في الصحراء، فربما نجد واحـــة أو حياة أخرى خلف تلك التلال. نتوغل ونتناسى سمكا كان لنا، نتناســـى إلى حين، يا مُعين...

أرضُ الحروفِ

أمسكَ بالقلم وغرسَ الأحرفَ في باطنِ السطورِ أسئلةً، فأبت أن تَحْبَلَ بالفضيحة وتمسَّكَتْ بالبياضِ كأنه الطُّهْرُ، دون أنْ تُغَازِلَ حرفا أو تُلامِسَ الاخْضِرَارَ. بدت له الصفحاتُ سيدةَ بياضِها وعاشقةَ الهواءِ، لكنَّ الصورة التي خطرت أمامه خنقت قلمَه، فلا هواؤها أنعشُه ولا حروفُها المدفونةُ خرجتْ تناوشُ الحياةَ.

أمسك بالقلمِ من جديد ليُزَحْزِحَ الصَّنَمَ عن عيونِ الخضرةِ وألسنةِ المدى. وضع علامةَ استفهامٍ انفجرتْ فيه وأوقدتْ أسئلتَه على مَجْمَرَةِ الوقتِ، فلا سؤالٌ بَرِدَتْ نارُه، ولا الوقتُ غادرَ مَوْضِعَ النَّبْعِ.

تشبَّثَ بالقلمِ في يده ليسائلَ السكونَ المعجونَ بماءِ الصَّمْت. وضع علامةَ تعجُّبٍ عَجِبَتْ لموقفِه وسَخِرَتْ من أحلامه الخضراءِ وحركته التي يُلوِّحُ بها على أسنَّةِ الوعد. بدا كما لو كان يُشْهِرُ فسفورَه الأبيضَ والأزرقَ والطَّيْفَ كله في وجه أجسادٍ أَنْتَنَهَا جمودُها وأعلاها فوق مجرى النهرِ لتصيرَ تيفودا يُشْهِرُ أعْرَاضَه في وجه الصباحِ والمساءِ والمواعيدِ الحائرة، كما طائرةٌ ضاعتْ خريطتُها فظلَّتْ محلِّقَةً دون أن تعرفَ محطَّةً أو يلوِّحَ لها مطارُها باللجوءِ لحضنه.

عندما ضجَّت رأسُه وتلاطمت أمواجُها، أَسْكَنَ حركتَه الغاضبةَ على جَلْطَةً وشيكةً تُحيدُ طريقَها ولا يَصْمُتُ قلبُه عن نَبْضِ الكلامِ. ثمَّ ثَبَّتَ نصلَ القلمِ في سُرَّةِ الصَّفحة ليضعَ نقطةً ويتركَ القلمَ. لكنَّ حروفا خاصمَتْه وحروفا ندّدَتْ بجبنه أو انكسارِه وخيانته في وَضَحِ المعركة، فعاد إلى أرضه ليعيدَ حساباتِه ويفكِّرَ في إستراتيجيةٍ جديدةٍ يعانقُ بها الماءَ.

انظر خلفك في صخب

"انظر واسمع كما تشاء، لكن لا تفتح أبدا فمك. هذا الشرط الوحيد في العقد وما عداه ابنتي زوجة حلال لك". هززتُ رأسي موافقا، فها هي حبيبة قلبي ومنتهى مناي زوجة لي. لم يشترط أبوها شيئا سوى ذلك. عندما خرجتُ كان العصر يؤذن، لكن الإمام ما إن فرغ من أذانه وبدأ يترل من أعلى المئذنة حتى زلَّتْ قدماه، فسقط. سمعتُ همهمات علت هنا وهناك: "قصة كل يوم". وعندما وصلتُ إلى الفناء أمام الموضأ وجدتُ المؤذِّنَ مكسورَ القدمين مجروحَ الركبتين.

سمعت صوت امرأة تولول وسمعت تعليقات ساخرة على جريها في فزع: "بنت الـ... تعمل من نفسها شيخة، تجري وتصرخ وكأننا لم ندفنه سويا". دخلتْ فناء المسجد وعلى وجهها فزع حقيقي. احتضنتْ قدميً الشيخ وأخذت تقبّلهما. ثم انتزعتْ قطعةً من جلبابها وربطتْ بها دمه. نظرتُ إليها نظرة متفهِّمة وكأن روحها تسللت إليّ فامتزجت برأسي وصارت جزءا منها. "لكنني عندما نظرت في وجهها الذي يبتسم في فتور / أدركت أن روحها لم تكن في ذلك المكان الغريب"6. ومع ذلك تذكرت شَرْطِي ولم أربّتْ على كتفها أو أخرجُ لأصرخ في الجالسين بباب المسجد يُلقون بالتعليقات والوشايات على المرأة دون حراك. التفتتْ المرأة إلى الشيخ وقالت: "سأبني للمسجد مئذنة جديدة بسلالم واسعة". لكن الشيخ

6 من قصيدة "راقصة هارلم" للشاعر الأمريكي الأفريقي كلود مكاي. وجه أمريكا الأسود، وجه أمريكا الجميل: مختارات من الشعر الأفروأمريكي. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة جمال الجزيري. المشروع القومي للترجمة. 2005.

قال لها على الفور: "مالك لا يصلح لبناء المئذنة". وسرعان ما سرت نظرةُ ندمٍ أو ألمٍ في عينيه، فاعتذر في تردد وقال لها: "الله هو المُسَهِّل والهادي".

همتُ أن أصرخ في الناس ليسارعوا إلى إنقاذه، لكن الشرط قيّد لساني. فعرجتُ في صمت إلى الداخل وصليتُ العصر في سكون. وعندما وقفتُ عند باب المسجد لأحدِّدَ وجهتي، سمعت أصواتا تتشاجر. التفتُّ لأجد رجلا يمسك "قَصَبَةً" ورجلين بجانبه يتشاجران. "كيف يا عم الحاج تقول إن الحد الفارق بين غيطي وبين غيطه هنا؟ ألا ترى أنك أكلت من غيطي ذراعين؟" وكأن آذان الحاج فوهة درّاسة جهنمية أكلت كلامه دون أن يخرج منها شيء. أخذ صاحب الغيط المأكول يضرب كفّيه ببعضهما ويتحسبن دون أن ينهض أحدٌ ليشهد على ظلم الفرق. كدتُ أصرخ: "كيف ولماذا؟" لكنني ارتددتُ إلى شرطي، فكبحتُ جماحَ لساني وصمتُّ.

عدتُ إلى الطريق بجانب مجرى الماء. فركتُ عينيّ غير مصدِّقٍ لما رأيتُ. التفتُّ إلى الوجوه الجالسة بجوار المسجد ثم عاودتُ النظر إلى الغيطِ لأحاول أن أشدَّ عيونهم إلى أشجار الحشيش المزروعة بجانب المسجد. بيد أن عيونهم كانت تنساب فوق أشجار الحشيش أو تحتها وكأنها جزء لا يتجزأ من هذا المكان في موضعها السليم. ضربتُ كفا بكف أنا الآخر ومضيتُ إلى النهر علّ ماءه يردّني إلى فطرتي. لكن رأسي أخذت ترمح بي في الحماد وتهرول يمينا ويسارا، أماما وخلفا، وكأنها كانت تحاول أن تستوعب شيئا. تذكرت نظرتها وابتسامتها لسماع الشرط، فتسلل إلى قلبي شكٌّ: ما معنى ابتسامتها أصلا؟ أين كانت رأسي عندما قبلت بهذا الشرط العجيب؟ إن كانت قبلتْ بهذا الشرط، فلماذا التعلق بها أصلا؟ لست أدري إن كنت قد أخطأتُ

الظن فيها من الأساس أو أنها كانت لا تستحق كل هذا الصمت. لم توصلني أفكاري إلى حلٍّ وظلت المتناقضات تلعب في رأسي كأنها "فرّيـــرة" وهـــذه المتناقضات لا تملّ الدوران والنخر في رأسي.

واصلت طريقي إلى حدود النهر. ربما أصابني تبلُّدٌ ساعتها. لم أستطع أن أحدد ما كنت أحسُّ به عندما رأيتُ رجالا ينهمكون في العمـــل في أحـــد الغيطان فيقطعون النباتات الصغيرة والمتوسطة ويتركـــون النباتـــات الـــتي شاخت في جذورها وصارت هشيما لا تذروه أي ريح. ظلت رأسي علـــى تشتُّتِها تتلاطم فيها الصورُ دون أن أتوصَّلَ إلى وجهة نظر ترضـــيني أو إلى طريقة مناسبة للخروج.

عندما وصلتُ إلى النهر، وجدتُ رجلا جالسا على الضفة يملأ عُلَـــبَ سمنٍ نباتيٍ فارغةً بالماء: علب يملأها إلى آخرها؛ أخرى يملأها إلى منتـــصفها؛ ثالثة يملأ ربعها؛ رابعة يضع فيها نقاطا لا تكفي حتى لبللها؛ وعلب يتركها فارغة تماما لحرارة الشمس والجفاف. انتابتني حرقة لأن أنبِّه الرجـــل: لَمَ لا يملأها جميعا بالماء إلى آخرها ويحملها على عربته الكارو المنتظـــرة بجـــواره وحماره الذي يأكل في الحشائش بدون نظام؟ لكنني تذكرتُ وأحسستُ في الذكرى قيدا، فاستدركتُ: ما ذنبها إذا أخللتُ أنا بالشرط؟ فتركتُ الرجل وانصرفتُ لينقلب عليّ نصف السؤال الثاني: وما ذنبي أنـــا إذا واصـــلتُ التزامي بهذا الشرط؟ كأن صوتا ناداني أو همس في قلبي: ذنبها أنها ابتسمت لسماع الشرط، تركتك أخرسَ تموت كل لحظة في صمتكَ وعجزٍ بإمكانك التخلص منه. قطع هذا الصوتَ صوتُ صراخٍ، فجريتُ بفضول إلى مصدر الصوت. وجدتُ رجلا يضرب زوجته وأما تضرب أطفالها. اندفعتُ بتلقائية

لأفض العراك. لكن شرطا همجيا أوقف قدميّ في اللحظة الأخيرة وشكم لساني. بدأتُ أحس بوطأته على رأسي وهواني على نفسي. ومع ذلك التزمتً. أحسست بأن رجولتي ستنقصُ إذا نقضتُ التزامي. وفي نفس الوقت نازعني هاجس بأن رجولتي تنتقص إذا ظللتُ صامتا أمام ما أرى. جالت صورتها الغاوية أمام عيني وكأنها كانت تعاتبني أو تؤرقني أو تجرجرني في بِرَكِ الماء الراكد بجانب الطريق، "ليس لي ذنب في كل ما ترى"، ومرة أخرى كانت تظهر لي بصورة مختلفة: "ما دمت قبلت الزواج بي بدون ثمن فلتستحمل كل ما تراه" أو "أنا في انتظارك، اربط لسانك بمربط بقرة هائجة وتعالَ إليّ". ثم سمعتُ صوتا يحبو على لساني دون أن يقوى على الحركة الكاملة: "سيمسي وجودي هيكلا عظميا، قوقعة / إذا لم يطعمني الدم المترّع بالحياة"7.

تزايد غليانُ رأسي حين بدأتْ حواسي تتصارع مع بعضها البعض. كنتُ أظن أن السمع والنظر كافيان للانسجام مع العالم، خاصة وأنهم كانوا يقولون لنا إن الإنسان له أذنان وعينان ولسان واحد. كانوا يقولون إن السكوت من ذهب. لكن سؤالا أخرج لي لسانه: "هل هو ذهب صيني مزيف من ذلك الذي ينتشر في الأسواق الآن ولا قيمة له؟ حتى لو كان ذهبا، ربما كانت الفضة ذات قيمة أكبر. ها هي عيني ترى، وإما للسان أن يعلِّقَ أو يُشْتَرى. الأذن تسمع ولابد للسان أن يردد صدى ما سمعه، أن يعلّق عليه، أن يشارك فيما يسمعه، أن يعجنه ويشكل منه طعاما مناسبا له". ساعتها أدركتُ أن لساني مقيد بزواج كان شرطه نقمة عليّ. لعنتُ الزواج

7 من قصيدة "المدينة البيضاء" لكلود مكاي، المرجع السابق.

ورأسي التي سكرت عندما سمعت الشرط المراوغ دون أن تلتفتَ إلى ما سيجرّه عليّ. أخذتْ رأسي تدور في كل الاتجاهات. وأبصرتُ نفسي ضئيلا إلى حد الهوان وأن كل النباتات الصغيرة حولي التي كان شوكها يجرح من يقطعها أطول مني بكثير وكأن حركتها وهي تنشكّ في أيدي القاطعين لسانٌ مازال يحتفظ بمرونته.

عندما بدأتْ الرؤية تتضح أمام عيني، أحسستُ بيد تتحسسني من الخلف وتثقب بسرعة هائلة ثقبا في رأسي ثم تمتد إلى أسفل ظهري، تراءى لي الخطر وحشا يوشك أن يبتلعني للأبد. تداخلت أمام عيني الصور سريعا: زوجةٌ في بيت بجانب رجل فاقد كرامته؛ شرطٌ لم أدرِ ساعتها مدى فداحته يخرج لي لسانه ثم يبصق في وجهي مستهزئا؛ لسانٌ لي ينظر مقهورا لكنني أخذله؛ صلاةٌ أحاول أن أصليها بكل خشوع فترتد إليّ ساخرةً صارخةً لافتةً نظري إلى القدمين المكسورتين أمام المسجد. صمتَ شريطُ الصور فجأةً كأنه يطالبني بالتعليق على ما أرى. ولأول مرة كبحت جماح شرطي ولويت عنقه لأرمي به في البرك الراكدة بجانب الطريق واستجبت بعفوية وفورية، فأخرجت مسدسي الذي أوشك على الصدأ من جيبي واستدرت للوراء بسرعة، قاذفا طلقة على يد أوشكت أن تتوغل فيّ. لم أحس ساعتها بالدم الذي كان ينزف مني، لكنني ارتحتُ، فأدرتُ ظهري للبلدة النائمة على ضفة نهر كسول وسارعتُ الخطى وصوتٌ لا يفارق أذني: "انس دفء ذراعيها / وصدرها الذي دلّلك. / وانس أي وجه أحببته / أغمض عينيك. / أغمض عينيك وسر في شجاعة"8. طربتُ للصوت وأحسستُ بقوة حقيقية تسري في لساني وهو يردد هذه الكلمات في انتشاء وراء لساني الذي ما عاد كسولا.

8 من قصيدة "أغمض عينيك" لأرنا بونتام، المرجع السابق.

جانب الطريق

يصدمك الجو بحرارته بعد خروجك، لا تحب قيادة السيارة حتى الحرم، الفرصة الوحيدة للمشي، كلها ربع ساعة، تستغرب للرجال والنساء الواقفين أو الجالسين أمام المحلات التي بدأت تغلق أبوابها، تتوارد على أذنيك أصوات رجال الهيئة بسياراتهم، الصلاة، دع ما في يدك واذهب للصلاة .. تندهك أضواء مسجد بلال، هكذا أنت دائما، ما ذنبي؟ الصلاة هناك بألف صلاة، التجارة مع الله يا بلال، تسرع الخطى كي لا تفوتك ركعة، كل مرة تفكر في العروج إلى ذلك المسجد الصغير بجانب الحرم، يناديك بزجاجه المعشّق ونقوشه، يناديك بوقوفه على جانب الطريق من الجهة الأخرى، كل مرة تفكر، صار تفكيرك حنينا، حنينا لشيء تحس أنه ضاع منك، لصلاة تحس أنك في حاجة إليها، تعاودك مجلة الهامش التي اقترحها صديقك ذات يوم، وهل تضيّع ألف صلاة؟ ما أحوجك إليها! ربما تعوض بها بعض ما فاتك في أشهر العناد، أشهر الظن الأحسن من اللازم، الحُسْنُ الذي يقارب الضلال، في أوقاتكم حق معلوم... تسارعون الخطى لصلاة الفجر في جامع السيدة زينب، تخلعون أحذيتكم، يقول لكم العامل إن مكان الوضوء في الخلف، تضعون أرجلكم في أحذيتكم، تمشون في الفجر مئات الأمتار، لا تجدون شيئا، فتلبسونها، وتلعنون أعمال الصيانة والترميم تنصرفون... يقترح أحدكم أن تصلُّوا الفجر في مسجد السيدة نفيسة، كيف ستصلون إليه من بين السرايات في ذلك الوقت؟ ما هناك وقت! ما هناك مواصلات! تشرعون في الجري دون أن تعبأوا بالنظرات القليلة المستغربة، دون أن تلتفتوا لرجال الشرطة...

الحمد لله، لم تُقَم الصلاة بعد، تدلف من باب الملك سعود، تصلي ركعتين تحية للمسجد وتجلس تسبيحا، ألم أقل لك إنك موزع بين الدروب، تتناصفك المشروعات، تتقاسمك الرغبات؟ لِمَ لا تخشع في صلاتك؟ صوت الإمام جميل وخاشع، وها أنت تفكر في قصتك، تفكر في ذلك المسجد الصغير، تفكر في مسجد بلال، تفكر في أبيك الذي مات ولم يكن يصلي، مع كل حركة فكرة، تتناقلك الحركات، تستغرب أن المنادي لم ينادِ على صلاة الجنازة حتى الآن، فيقطع عليك استغرابك، الصلاة على المرأة يرحمكم الله، ما عدت تتذكر الطقوس، أستقرأ في الركعة الأولى الفاتحة؟ هذه أذكرها جيدا، وفي الثانية "قل هو الله أحد"، وفي الثالثة الدعاء لها ولأموات المسلمين، الرابعة قصيرة جدا، ربما لا يكون فيها شيء على الإطلاق... تقف صامتا خاشعا حزينا أمام الجامع بقريتك. تترك يدك لمن يعزّيك في أبيك، وعندما ينادي الإمام للصلاة، تدخل. تذكر أنك توضأت. لكنك لا تعرف ماذا ستقول. لا بأس. صلاة الجماعة مريحة. المهم ألّا تترك أباك دون صلاة هو في حاجة إليها. ...تذكر أنك سألت قريبا لك السنة الماضية عن صلاة الجنازة، مادامت ذاكرتك لا تلتقط التفاصيل هكذا لِمَ تكتب القصص أساسا؟ لِمَ لم توفّر على نفسك عناءَ التذكُّر وتتّجه إلى الشعر من البداية؟ ألا تذكر من قال إن ذاكرة الروائي ذاكرة فوتوغرافية تختزن كل التفاصيل وذاكرة الشاعر ذاكرة... ماذا قال؟ أقال ذاكرة توفيقية، توليفية؟ ذاكرة لا تحتفظ إلا بالخلاصة والانطباع المترسب عن الأشياء، إذن عليّ أن أكون هنا في برزخ آخر، لا إلى هذه ولا إلى ذلك، مرج الشعر والقصص يلتقيان، دائما تسحرك آية، بديع ذلك التعبير القرآني، كلما تأملت في الصياغة تزداد انبهارا، هل البنات إذن روائيات من الدرجة الأولى؟ ألم تقل عنهن سعاد حسني "ذاكرات فوتوغرافية"؟ ربما كانت نتيجة بحث عن طريق

الخطأ، وربما ألقاها محرّك البحث علامة بين يديك، فأخذت تبحث عن نتائج مشابهة، أساليب الاتصال بين الرجل والمرأة، وربما كانت التواصل، الاتصال أفضل لأنه لا يعني حدوث التواصل، وأخذت تجوب النت سعيا للفهم، سعيا للتواصل ... سوء الفهم يرجع دائما إلى العجز عن ترجمة لغة الآخر، فلنكن أصدقاء أحسن، ها هو رقم هاتفي، عندما تفرغ من ترجمة المقالة اتصل بي، عندما تفرغ من الترجمة تأخذ المقالة معك لتعطيها لها في محاضرتكما. تدرك أنك مازلت تلميذا في الترجمة، مازلت منغلقا على كتبك وأوراقك، مازالت الأبواب التي ظننت أنك فتحتها على الحياة مغلقةً، مازالت مغلقة يا صديق، وأنت من تتحمل وِزْرَ إغلاقها... وصل التوتر مع رئيس القسم اليوم إلى أقصى درجة، قال لي لابد أن أعيد كتابة جدول الاختبارات، وعندها قلت له لن أعيده، لقد اتفقت معك مُقَدَّمًا على كل شيء، واستشرتك في وضع 24 طالبا في القاعة، كيف تأتي الآن وتطالبني أن أعيده، لقد قضيت في إعداده أكثر من 35 ساعة، أمرني أن أسلم الجدول الأربعاء، لن أسلمه إلا يوم السبت حتى ولو فرغت منه اليوم. ... لِمَ لم تحضر لي سيارة يا أبي؟ أريد أن أسوق مثلك، مثلكِ لا يسوق هنا، أنا عاوزة سيارة، طيّب طلّعي أنت الرخصة وأنا أشتري لكِ السيارة غدا، تقولها مازحا، ارجع يا فتى! ... إن أصررت على العناد وركوب رأسك في كل مرة ستفقد عقدك، وساعتها ستتراجع إلى راتب لا يكفيك شيئا، كيف تحتفظ بكرامتك ودخلك؟ معضلة لا ترى لها حلا. ... لكنك سرعان ما تنسى كل شيء، دائما تفصل بين المواقف، لا يتسع ذهنك لاحتواء كل شيء، فتفرِّغه أولا بأول كي تنجز، إذا خرجت من الكلية تتعمد ألا تتذكر شيئا عنها، وإذا خرجت من البيت أنت في وظيفتك وكفى. ...إما أو، لكنك لست كذلك يا فتى، المنطق عاطفة والعاطفة منطق، وما بين الفواصل

تترك نفسك للاوعي لتنعم بصور تتراءى لك. ... ها أنت تتململ من سيرك مع زوجتك لعشرات محلات الذهب لشراء حلق وخاتم، ذهب هندي، ذهب سعودي، لازوردي، المشبك يمكن أن يُفكّ لوحدة، المشبك غير مريح، عيار **18**، عيار **21**، لا توجد أشكال جديدة، أشكال بدوية جدا، من يلبس هذه الأحجام الكبيرة؟ إن كنتَ تعبتَ اجلسْ في الحرم إلى أن أكملَ تجوالي، البنت الكبرى تريد لعبة كعادتها كلما نأتي إلى الحرم، طيبة مول، والصغرى أيضا، خادم الخاتم، تردد ما تقوله أختها على الدوام، إن كان يروق لها، وتهجم إن كان لا يروق، نامت "يا عيني"، نحملها بعربة اليد لنهبط السلالم إلى البدروم، لا يروق للكبرى شيءٌ في هذا المحل، دائما تدخله ولا يروق لها، تتجه إلى المحل المجاور، لا لألعاب العنف، أنا لسة بنت، صح؟ صح يا حبيبتي، تعالَ لنشتري من المحل الآخر، مازالت تصر على السيارة، مشكلة مستعصية، كيف تُفْهِمُهَا أنها لا يمكن أن تقود سيارة هنا حتى لو كبرت... اللهم جنبنا الآثار السيئة لتناقضات أنفسنا، اللهم أنر بصيرتنا دائما لنرى ما نحن فيه ولا نظلم أحدا، اللهم أفهمنا أنفسنا واجعلنا واعين بأخطائنا وتركيبتنا وما تسببه من ضرر لغيرنا، اللهم إنا نحمدك ونسبحك ونكبّرك ونقدسك ونمجدك ونُنَزِّهُك ونؤلهك إلها واحدا لا إله إلا أنت بعدد خلقك رضا نفسك زنة عرشك مداد كلماتك منتهى رحمتك، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صل على محمد والرسل والأنبياء السابقين له أجمعين، اللهم ارحم أبي وأعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي وجدودي وجداتي وأغفر لهم وأدخلهم فسيح جناتك يا عفو يا غفور يا رحيم يا وهّاب يا منّان يا حنون يا إله الكون يا قدير ... انهض قبل صلاة الشفع والوتر لتصلي ركعتين على روح أبيك وأمواتك وأموات المسلمين أجمعين، انهض، فالصلاة هنا بألف صلاة فيما سواه...

عاشقة الصلصال

تُغْلِقُ جهازَ التليفزيون في تأفُّف. نفسُ الوجوه الباردة تطالعها من وراء الشاشةِ الصماء. كأنها ليس لها موضعٌ قلب وسط كل هذا العالم. تفتح بابَ شرفتها. كل النوافذ مغلقةٌ. فقط همهمات تسمعها من هنا وهناك. ضحكات. صراخ. شجار. آهات. تحجبها النوافذ كشاشة تليفزيون تتكلم عن أناس آخرين، عن عالم غير موجود إلا في الخارج. تمد يدها في الظلام. تحاول أن تتحسس شيئا، حتى ولو كان طائرا تاه عن عشه وحطَّ على حبل غسيلها. لا تلمس سوى تراب الصيف الذي "وضع يده" على الحبل في الفاصل بين دورات الغسيل. تُزِيدُ تحديقَ عينيها علَّها تتبيَّنُ وجوها تحس بها، فلا تتبين سوى ظلامٍ مختلط بخيوط ضوء بعيد. تُغمض عينيها. تحاول أن تتخيَّلَ نسمةَ هواء وديعة، ربما تصلها إلى هناك، ربما تحمل لها في أثيرها كلاما، وجوها، ألفةً. لا بأس. تهلُّ عليها أغنيةُ "محمد منير": "الناس نامت إلاك، الناس نامت إلاي، واقف ليه في الشباك، مستني اليوم الجاي". تستبشر. تفتح عينيها. لا ترى أحدا. كل الشبابيك مغلقة. ترفع بصرها للسماء علها تبصر قمرا هناك. وعندما لا ترى شيئا، تترك نفسها لعبد الحليم وشعرها الذي تغسله على جانب الترعة والنهار الذي لا يملك مهرا. تتحسس ماء الترعة على جسدها. تفزعها عِللا تتراءى لها على شاشة الجسد. تتلمس شعرها. تجده يتطاير جافا واهنا في فراغ الشرفة. يكفيها كل هذا الجفاف. لا تريد أن يُتْلِفَ الترابُ ما تبقى من انسيابها. تغلق البابَ في وجه العاصفة الترابية وتدخلَ إلى الصالة.

ترتشف رشفةً من كوبها الوحيد. تتجه إلى رَفَيّ الكتب علَّها تجد شيئا لم تقرأه. "مكتبة الأسرة" لا تنشر جديدا. كل عام نفس العناوين، وكأن هذه الأسرة تجمَّدت على أعتاب زمن ولى أو أدمنت التكرارَ. تمسك كتاب

"الأساطير اليونانية والرومانية". ينأى عنها "كيوبيد". يصوِّبُ سهامَه على النوافذ المغلقة. لا ترى إلهة أو إنسانة أو نصفا. تقلِّب صفحات كتاب "آلهة مصر". لا ترى سوى عروس نيل غارقة في صفحة نهر يلهو بالصراخ. تنتقل يداها إلى الرف الآخر. نفس الروايات التي لا تزيدها سوى إحساسا بالفقد. ونفس الدواوين التي تبعدها عن أي إنسان. تكفُّ عن البحث. "يا غريب في الكون يا قلبي"،تباغت لسانها كلمات أغنية "حنان ماضي" فتعود إلى الصالة.

تجذب المنضدةَ عبر الصمت المتكتِّل حولها. تجلس لتكملَ احتساءَ كوبها. تحاول أن تكملَ القصةَ التي تعاودها كل يوم ولا تكتملُ. يتعثَّرُ القلم على كرَّاستها. تزيح الكراسة إلى طرف المنضدة. لا بأس. ستكتملُ ذات يوم. لابد. تندهها كتلُ الصلصال. تمسك جزءا منها مستبشرة. ربما كان اليومُ غير غد. تترك يديها لقطعة الصلصال. تجد رجلا يحاول أن يتشكَّل، أو أن قطعة الصلصال تحاول أن تشكِّل نفسها. تهبه ملامحَها، أو أنها تسكب على صفحة وجهه ملامحَ تراودها. تمد له يدها بقطعة صلصال أخرى مَهْرًا. لا يمد لها يدا. لا يتحرك في فراغ الشقة. لا تستطيع أن تلمس حرارة جسده. لا أحد. ينشقُّ الصلصالُ ترعةً. تميل بيدها لتغرفَ ماءً تروي به شَعَرَها. ينتفضُ جسدُها عندما يلمسه الفراغُ. تختبئ داخل الصلصال. تنتظر يدا تشكِّلها. لا أحد. تغمض عينيها.... شاربه الطويل يتدلى على جانب فمه. عيناه فيهما احمرار بيّن كأنه نقاط دم أراقها يوما ما في حياته. يجلس على كرسيه، ظهره للفضاء الوسيع، أمام مدخل القلعة الداخلي، وجهه لا يتجه إلى عازف القانون أمامه، بل تتجول عيناه دون أن تستقرا على شيء. تتماوج أنغامُ آلة القانون على يد العازف المتفاني في ريِّ النغمات من رحيق روحه. يتراقص أولاده. يزعق فيهم. يصوِّبُ احمرارَ عينيه سهاما حادة نحوهم. يسلبُهم لحظات النشوة بأنغام بكر. يا أولاد الـ... تعالوا هنا. سهامه تتمكن منهم وتصطادهم في الفضاء الضيِّق حوله. ينظر إليها. يمزق

إنصاقا.... تفتح عينيها في فزع. تنظر إلى نقاط الدم المتساقطة من لسانها في ذهول. تتداخل الأشكال أمامها.

تعجن قطعة الصلصال. تشوّهُ الملامحَ التي ارتسمتْ فيها. تمد لها يــدَ التشكُّلِ. تجد يدها تتشكَّلُ علامةَ استفهامٍ حولها.... يتخثر طعم الأسئلة في حلقها. لاذعة. ترسم قطعُ الصلصال علاماتِ استفهام في كل زاوية. تبحث في أوراقها للمرة الألف، تجد كل الكلمات ممحوة وفي نهايتــها علامــات استفهام كبيرة، وعيونا جدّ صغيرة تسخر منها بثبات. يصرخ قلمها بعلامة استفهام تمتد عبر الصفحات وتتطاول إلى كل الملامح حولها.... لماذا تشرق الشمس سوداء؟ عيون أب حمراء ملتهبة لا تبعث الدفء. عيون أم خاملــة تبعث حنانا زائفا. من صنع "التماثيل"؟ من جعل المسافات لانهائيــة؟ أيــام تماطلها. زمن يساومها. فرح يُسْرَق. مقام يربض في أعلى الحارة؟ بطــون تريد أن تشتري لحما أبيضَ. عربات لا تعرف معنى السير علــى الأقــدام. رجل يضع أوراقا مالية في صنارة ويحركها باستخفاف أمــام العيــون. وإن سرقته هل ستظل الإنسانة التي تعرفها؟ رعشة تحتويها. الفراغ في الغرفــة حولها يتثلَّث، يتربَّع، يستطيل، يتكعَّب، يتدوَّر، ويرقص في استهتار. تــرى الزمن غير زمانها، والقمر ما هو إلا أحجار صماء لا تشع أي شيء. خائفة من اهتزازاتِ وَسَطِ الكون. تُفْزِعُهَا أصواتُ الآلات التي تطبّل له. تُــسْرِي الحركاتُ الخالية القَشعريرةَ في جسدها. تدلف في المسجل شريطَ موسيقى خفيفة، فتشعر أنها جزء من شيء غير موجود. القلب الواجــد لا تــصله شرايين أو أوردة. تتقلب في السرير. يتململ الفراغ حولها. تحاول أن تقاوم حركاته العصبية من سكونه الطويل وملله الملول. تجده يذرف دموعا حمراء. شاخ. تحاول أن تواسيه بكلمات من التي تعودت أن تواسي بهــا نفــسها. يذرف دمعا أغزر. يمد الفراغُ بعض أياديه. يجلب سكاكينَ كثيرةً من أماكن شتى ويطعن بها نفسه. تجد نفسها ترتعش. تتشنج. تبكي. ولكنها لا تستطيع

أن تحدِّد أي سبب من الأسباب لذلك. تُفرِغُهَا جثّةُ الفراغ حولها. تتساءل هل ستفوح رائحتُها وتخنقها؟... تحاول أن تفرد يدها بعيدا عن قطعة الصلصال. تعاندها يدُها. تتمسك بعلامة الاستفهام. تقهرُ يدَها رغم أنها ملّت القهرَ. تسرعُ إلى الحمّام.

تترك جسمَها لمياه الدش حتى تُزيلَ آثارَ مياه الترعة وتلك اليدَ التي لم تمتد لها. تسكبُ مُطَهِّرًا على جسدها علّه يخلّصُها من رائحة جثة الفراغ. تدغدغُ الماءَ الساخن الذي يلامس جسدها في حنوٍّ. يرسم بخارُه وردةً في حضن الليل... تتمايل وتتراقص. تغني لغدها المصلوب في عيون حجرية وقلوب ليس لها رصيد: "تعالَ يا حبيبي، أم تريد أن تصعد فلا أراك ؟" تغازل أحلامًا رقيقة وتواسى الأماني المجهَّلة. تتصيَّد خيطًا رقيقًا من النور. يلمع في عينيها بريق. يراوغها الصلصال. يفلت من بين أصابعها فتقبض يدها على الفراغ. تدلف فى المسجل شريط موسيقى أغنية وطنية. تحتويها رعشة. تطرد بعض الدموع. تتساقط على شفتيها. تنهض. تحاول أن تعزف اللحن التمهيدي في سيمفونية الصباح. تتوه منها الأنغام ولا يريد اللحن أن يتشكّل....

تشطب الأبخرةَ المتضاربة حولها. تراها تتشكّل نخلة، تمتدُّ إلى سقف الحمام، تتكتّل حولها أعوادُ الذرة، فتحجب أشعة الحركة والناس والانطلاق. تضع يدها على رقبتها. كأن حركة الهواء الطليقة مختنقة. فراغ يتراقص فوق أطراف أعواد الذرة. تشخص بعينيها. لا ترى شيئًا أو حتى تشم أنوارا تتسرب إلى أنف دمها. تتراجع في ذعر. أصوات البهائم والإخوة مجهولي العدد تدور بها في متاهات الاختناق والغثيان. تتلفت حولها. بلا وعى تجد يدها تمتد إلى النخلة السامقة في شموخ. تتسلقها ببهجة جديدة عليها. تلتقط نسمات الهواء بانتشاء. تهبط على عجل مخافة أن تكون إحدى العيون تتلصص عليها من أسفل....

تمسك المسّاحة. تبدد البخار المتكاثف. تتباعد أعواد الذرة قليلا ولا ترى أثرا للنخلة. تتكتل الأعواد من جديد وترسم رجلا يتقدم إليها بخطوات ثابتة. تتراقص أسنانه الطويلة عندما يراها ترتعش. تتظاهر بالثبات. تفتح فمها وهي تحاول أن تخفي الرعشة. يرتعش ويتراجع. تهمّ بالمسّاحة على ما تبقى منه. تبدد كتل البخار. تترك جسمها ينعم بإحساس الماء الساخن. تغمض عينيها كي لا ترى شيئا. تتكلم. تسترق السمع إلى طبقة من طبقات صوتها. تعزل الطبقات عن بعضها البعض. تقيم بينها دردشة. عندما تحس بقدر من الدفء، تدندن ببعض الكلمات المرتجلة. لا تسمع صداها. يرفض الماء أن يبادلها الدندنة. تعاتبه. لا يستجيب لها. عندما ترى خيوط البخار تبدأ في التشكل من جديد، تضع يدها على قلبها وتغلق الدُّش محبَطة.

تجلس أمام المرآة. تنعم بصورتها للحظات. تمعن النظر في تفاصيل الجسد. تراه بعيدا في قعر المرآة. تكشّر المرآة عن أنيابها. تتكور أنيابها زنزانة بين جسد ذلك الرجل: يقبض عليها بفمه وأسنانه تغز فيها وتمص الدم بانتشاء. عندما يشبع يطبطب على بطنه ويتمتم برضا: "طعمها عسل". تشك في معنى العسل. تطرد بقايا الطعوم من على طرف لسانها. تضمّد الجرح ليلتئم. بإشارة آمرة منه، تمدُّ جزءاً آخر منها... ينتشي... تضمّد ... تمدُّ ... يتجشّأ ... يُبرم شاربه ويأمر بالشاي... عندما تتأخر يهدر الدم في عينيه ويتوعَّد... تأتي بالشاي وهي تمسح دمعة متبقية على خدها. "لماذا تبكي؟ ما الذي ينقصك!!"... "أوشكت الجروح أن تمحوني"... "أنا زوجك". تقبع في أحد أركانه وتمد له جزءاً جديدًا... تمسح دميعة وتمد له جزءا صغيرا متبقيا. يمتص. لا يتجشأ. يبحث عن أجزاء أخرى فتمد له الوسادة ... عندما ترى عينيه تهدران تتأكد من قوة أسنانها وتتحفز.... تصطدم أسنانها بإطار المرآة. تنقذ نفسها في اللحظة الأخيرة من زجاج قد يبيدها. تخلع قميصها. تتحسس جسدها. تدور به أمام المرآة. تحاول أن تستقرئ تضاريسه. تتأوه حسرتها عندما ترى الجفاف البادي. التربة

متشققة. لم يقربها ماء. لا ترى مَنّا ولا سلوى. لا تبصر ناموسا يتطاير هنا أو هناك، فلا تظهر أمامها شجرة ولا مجرى ماء. تجهّز محراثها. تربط في مقدمته دميتين وتبدأ في الحرث. تصطدم يداها بالبذور التي مازالت كامنة تحت تربتها. تعود إلى الحمام. تفتح جانب الماء البارد من الدش لتبلل بذورَها. تمعن في تبليلها عندما ترى أعواد الذرة تتكاثف حولها لتسد عنها الهواء والنور. تفتح خلاط الماء البارد إلى أعلى درجة. تترك شعرها للماء أو أن الماء هو الذي يهمُّ به. يندفع الماء بين خيوط الشعر. تشعر بيده تقبض على شعرها وتشدُّه. وعندما تجد اليدَ ترفع وجهها للماء ليسدَّ أنفها، تنتفض. تقبض على الخلاط. تلويه جهة اليمين. تشل يد الماء ويتراجع إلى حيث أتى. تمسك المشط. تواسي شعرها بتمشيطه خفيفا. تعود إلى غرفة النوم. تحاذر أن تقترب من المرآة. تلبس قميصها وتحتمي بالصالة.

تنقضُّ يدُها على كتلة الصلصال. تخلط الملامح التي لا تريد أن تتشكل لترتدَّ كما كانت صلصالا خاما قابلا للتشكل. تقتطع منه قطعة. تدسُّ فيه بذورَها. تبلّل قطعة قماش. تلفُّها حول الصلصال. تفتح كتاب الأساطير. تضع القطعة ببذورها وقماشها وسطه علها تنبت في زخم أساطير الميلاد والتكوين. تعود إلى منضدها. تلف يديها حول كتلة الصلصال. تتكور الكتلة في رحم اليدين. تنفخ فيها من روحها. تقسّمها نصفين. تتشكل العيون الصغيرة. تدوّر الفمين. تتوخى دقة الخدود. تبرز الأنفين. تتشكّل الآذان. تنفخ فيهما من روحها. همّ أن تعلمهما أسماءَ. لا تسمع عطسا. لا أحدٌ يحمد الله. لا تسمع صراخا أو لعبا. ترفّ عيناها عندما تتذكر بذورها وكتاب الأساطير. يفور التنور. لا يلوح أي جبل في الأفق. ما هي إلا واحدة. تتباعد الفلك دون أن تحمل أحدا. تتباعد. تتسرب في فتحات النوافذ المغلقة. ينقبض قلبها. تمسك حجرا. هرول في أرجاء الصالة. عندما تصل إلى الشوط السابع تحس بالإرهاق. تجلس على الكرسي منهكة. تتحسَّسُ بطنَ الشقة. تقشعرّ يداها عندما تلامسان الصمت والفيضان. تمزج النصفين كتلة واحدة عندما لا تبصر سبيلا للاثنين. ترص الكراسي

حول المنضدة. تقسم قطعة الصلصال نصفين. تدّخر نصفا بجانبها على المنضدة وتمسك النصف الآخر. تشكله بعدد الكراسي حولها. تبدأ في تشكيل الملامح. تسوِّيها على عينها. لا تدب حرارة في الأوصال.... يجلس أمامها "بجماليون". يهديها قدرا من أفانين التوسُّل. تخترق "فينوس" باب الشرفة. يتحطم الزجاج ناثرا شظايا كانت تحلم بأن تسدَّ طريق عاصفة ترابية كي لا تصل إلى امرأة وحيدة بالداخل. تصعق فينوسُ بجماليون ليتجمَّدَ عند طرف المائدة؛ تنظر بحسرة للنساء الراقدات في حسنهن في انتظار دفقة الحياة؛ تشوه ملامحهن وتنصرف دون أن تصلح الزجاج.

تتساقط دموع حاولت أن تحبسها. تحاذر أن يجرحها الزجاج. تلقي نظرة ساخرة على الفراغ المتشكِّل بحجم جسم فينوس في شيش باب الشرفة. تغلق الباب في وجه الأتربة. تتحسس نساءها. تجاهد في سبيل إرجاع الصلصال إلى المادة الخام التي كان عليها. تخلط به القطعة التي ادخرتْها تلمّسا لليونة. تعلو البسمة شفتيها عندما تستعيد ليونة الصلصال. تستبقي قطعة وتقسم النصف الآخر بعدد الكراسي. تشكل الملامح كيفما اتفق رجالا ونساء. تجلسهم على الكراسي حول المنضدة. تغمض عينيها. تتراءى لها صورة بجماليون جريحة أو عاجزة. تظل على إغماض عينيها. ينسلُّ "بروميثيوش" من أحد الرفين. يدخل من عتبة عينيها قلقا. لا يريد أن يجلس. ينظر لرجالها ونسائها. يهرع إلى نار بوتاجازها. لم تلمسه غير يدها. ناره وحيدة لا تحمل ملامح الصخب والزخم والتضارب. يتسلل إلى النوافذ المغلقة بالخارج. لكنه يتراجع هاربا عندما يسمع سرينة سيارة الشرطة.

تضحك من أعماقها. ترتمي على الكرسي في ضحكات صاخبة. تتلقفها أمواج ضاجة كأنها الزخم. تنظر إلى رجالها ونسائها من زاوية أخرى. تجلسهم على الكراسي الخمسة بجوارها حول المنضدة. تنكب على تشكيل الأكواب. تضعها أمامهم. تقرع كوبها الوحيد بأكوابهم. يرتشفون القطرات على مهل. تدردش بحميمية مع الوجوه التي تملأ فراغ الصالة حولها.

نـوافـذ

"هي" تراود عقلي الآن. تتبدد كل محاولاتي. تتبعثر المفردات التي "أعـــصر على نفسي ليمونة" لأرتِّبها بطريقة ترضي الجميع. هل "هي" من النافـــذة الآن، بالرغم من أنني أغلقت كل النوافذ التي تفك ما نظمته؛ تطل ببهائها، وكنتُ قد أدرجت البهاء في طيات كتب لا تجد ناشرا. تتجسد الآن حيـــة أمام مخيلتي، وكنتُ قد أدركت أن تجسدها مفسدة، يفسد كل ما أجـــبرت عقلي على أن أنظِّمه. أحنُّ كل حين وحين إلى لحظة بهاء. لمَ تهلِّين الآن وأنا أدرك أن سمائي لا تحتمل إلا هلالا واحدا؟ ماذا أفعل بهلالَي إن أنت هللت وأصرّت طائراتك على فرض الحظر على سمائي؟ ماذا أفعل بهلالي؟ ماذا أفعل بأقماري الصغيرة إن هللت وأصررتِ على قصف ذلك الفلك الذي يتخذُني محورا؟ أنا هناك، ويا للمفارَقة أنا هنا، هنا وهناك، يعني أنني لا هنا ولا هناك، أنا أبحث عني، أنا أبحث عنك، في كل تلك التراكمات أبحث، أنا ملف ضائع وسط هارد ديسك قديم، هارد كبير، أبحث، أحاول أن أتذكر أية كلمة منِّي كي أبحث عني، لا أجد لي عنوانا، لا أتذكر من مفرداتي شيئا، وكأني قضية ضيعها مجلس الأمن، ضيعها حق الفيتو، ضيعها إعلام يصر على المراوغة، أنا كنتُ، بالتأكيد كنتُ، كنت أغضب، كنت أهدر، كنت أضحك، كنـــت تلقائيا، كنت همجيا، كنت بربريا، كنت حساسا، كنت تواقا، كنت عاشقا، كنت لا أرى فواصل بين قلبي والعالم، وها هي علامات الترقيم تُختـــزل في نقطة كبيرة، كنتُ أبصرُ آيات التَّجلِّي في كل مكان، وكان النهر، إذا مـــا تأملتُه من فوق كوبري عباس، أحس بالروعة، بالجلال، بالبهاء، بكل الآيات على صفحة النهر أمامي، أراه، يلعنون الصوفية في هذي الأرض الحـــرام، يقولون إنها من وثنية مصر، أرى الكون، أراها، أراني، أرى كل حياة علـــى سطح النهر أمامي، وكان النهر يكلِّمُني، كان يخالطني، وكان يناجيني، كان يحاورني وأحاوره، تلتحم في الحوار مفرداتُ الكون، آلافُ المخلوقـــات في

تلك اللحظات البهية، كان قلبي ينفعل، ينبض، يحس فعلا، بما يرى يحس، وكنتُ جزءا منه، أو كان جزءا مني، جزء عضوي، لا انفصال بيني وبينه، لا انفصام بيننا وبين الكون، وكنت أراها، كنت أراها، كان نورها فعلا يراود التخيل، يراوغ التخيل، ربما كانت أكبر من خيال كان في مقتبل شبابه آنذاك، لكن الخيال كان يُلِمُّ ببعض منها، بقبس من نورها، كان وكنتُ حياة، كنتُ قوة، كنتُ عنفوانا، كنتُ انفعالاً، كنتُ شططا، ربما كان الجهل، ربما كان الحدس وحده نعمة، ويا ويلك، يا ويلك إن عرفت، يا ويلك إن تَموْتَ، ستكون بصيرتُكَ نقمةً عليكَ، سيكون عقلكَ لعنتَكَ الأبدية، ستدركَ في كل لحظة أنك تفعل كذا، تحس بكذا، تفكر في كذا، ستكون واعيا بكل شيء، كل شيئا تفعله، تراه، تحسه، ستكون واعيا به، حتى إحساسك ستحيط به وعيا، ولن يحيط بك غَمْرًا، لن يحيط بك، ستكونَ دائما أكبرَ منكَ، لن يصير إحساسا، سيصير مجرد فكرة من كل تلك الأفكار التي تدور في فلكك، لن تعيش شيئا متجسدا، لن تنغمس في شيء، فأنت دائما أكبر من كل شيء، واع به، واع بما يحدث، وستتمنى ساعتها لو تفقد وعيك للأبد، حتى عندما تسكر يا فتى، ستكون واعيا بأن سكران، لن تنعم بشيء، لن تصير تلقائيا، ساعتها قد تمثل أنك لاواعٍ بسكرك كي "تتريق" على أحد، أو تنكِّل بأحد، أو "تبهدل" أحدا، أو ما شابه، مَقْلَبٌ، ستمثل أنك غير واع بسكرك كي تضحك لبعض الوقت على صديق، فاصل كوميدي، تمثيل، لكنك تعي بسكرك، تعي بوعيك، ووعيك يعي بوعيه، ويعي بك، ويا ويلك من وعي، ها أنت تعود إلى ما مضى، تعود إلى ما هو حالي، لكنك لا تذكر الآن أين بدأت أو أين انتهيت، تذكر أنها كانت تطل من نافذة وعيك، كانت تغرس نفسها هلالا أو بدرا في سمائك، كانت تغرس حروف اسمها في ذلك الأفق نجوما تهدي السائرين، تهدي الحالمين، تهدي من؟ أأنت ضال؟ أنتَ مفردة خرجت عن السياق، وما عدتَ تحس بشيء، إذ أن وجودك وسط هذا السياق، وسط ذاك السياق، لابد من سياق تعيش فيه، كيف تحس بالحياة إذا لم تجد مفردة هنا، مفردة هناك،

مفردات يجاورنك، يلتحمن بك، يمنحنك شيئا من الدلالة، قبسا من النور، وتمنحهن قبسَ حياة، كيف؟ لكنك هنا أو هناك خارج سياق، كم أنت ظالم يا فتى!! كم أنت ظالم!! حولك سياق آخر، لكنك تظن أن ذلك النور، ذلك البهاء، أكبر من أي نور يشع حولك، لكن ذلك النور يجور عليك، يعمي عينيك، فلا ترى شيئا مما أمامك، لا تبتهج، طبعا كانت معرفتك، ربما كان وعيك، سببا في عدم البهجة، من يدري يعرف، ومن يعرف ستصيبه اللعنة، معرفتك نقمة عليك، العلم نور! لكنه نور يؤرقك، وعيك ذنب يطاردك، خطيئة تتحملها ليل نهار، وأنت مشكلة أبدية، معضلة، لا لك أن تتراجع، لا يمكنك أن تلغي كل هذا التاريخ وتبدأ من الصفر، تبدأ من الحياة، لا يمكنك أن تعود إلى حياة أنت تجاوزتها، أحيانا تبتهج بوعيك لأنك واع بكل هذا الوعي، كلام من يا فتى؟ أحيانا تبهجك معرفتُك، تمكُّنك من اللغة، من مفردات الفكر، من التنظير لأي شيء، من إدراك العلاقات الكامنة بين أية أشياء في هذا الكون، أحيانا يسعدك ذلك، لكنك تتمنى أن تَسْعَدَ لاواعيا، أن تنغمس في التجربة، دون أن تخرج منها على الدوام لتكون خارجها وداخلها في نفس الوقت، تعيشها وتعي بها، تصير لعبة بين يديك، مسرحية أنت من كتبت سيناريو لها، وأنت الذي تمثله، أنت السيناريست والمخرج والبطل، ولن يضيرك ألا تكون دقيقا، ملتزما بنص هو منك، لن تبتهج بهذا، لن، ومن ذا الذي يبتهج بشيء يحس أنه عادي، أنت تعرف كل شيء عنه، كل أسراره، لن يكون هناك تشويق، لن تندهش، عادي جدا، لا جديد، لا قديم، مستحيل أن تكون الحياة هكذا، لكنك لا تجد جديدا فعلا في أي شيء تعيشه أو "تتفاعل" معه، كل ما هو جديد بالنسبة لك أفكار، مجرد أفكار، من بطون الكتب، من الانترنت، من مصنع الغزل والنسيج الذي يتجبَّر على خيوط ذهنك فيصنع منها كل الأفكار الممكنة وغير الممكنة، من أشعار تقرأها لهذا وذاك، فكل متعتك الأساسية أيضا ربطك بين هذي القصيدة وتلك، بين هذي العلامة وتلك، بين هذا النص والنص الأكبر المحيط، أنت الذي تولّد متعتك، ومن أدراك؟ ربما تكون

متعةً متوهَمةً، تحدث في وعيك فقط، لا شيء آخر، لا شيء، من ذا الذي يمنحني الحياة وأمنحه نصف وعيي؟ من الذي يرجعني إلى نصف الوعي فأهبه النصف الذي أرجعني إليه؟ معادلة بسيطة منطقية، وعيي مكتمــل، خــد نصفه، ولا تترك أثرا لهذا النصف، فقط أريد أن أفرغ جزءا مــن رأســي و"أمسح ذاكرته" تماما، "مسح كامل"، "مسح سريع"، ولا بأس إن "تَلَفَت" بعض "البَايْتَاتُ"، بعض "القطاعات"، لا بأس، سأحتويها بــ "حَجْرٍ صحي"، ولن أُنْزِل عليه "بــرامج" جديــدة، فلتــذهب "الونــدوز" إلى الجحــيم و"الأوفيس"، بلا مكتب، بلا كتب، بلا أي شيء، حتى "النوافذ"، لا أريد أن أطل على العالم، ولا العالم يطل عليّ في هذا النصف، ونجرب، لن يخسر أحد شيئا، ولكن من ذا الذي سيتجرأ ويسرق النصف الثــاني؟ ســأترك نوافذي مفتوحة في المساء، سأترك نوافذي مفتوحة، سأترك رأسي مصيدة، حتى عندما تعرِّض نفسك للسرقة تعي أنك تعرضها للسرقة، سأترك نوافذي على مصراعيها هذا المساء، ربما سرّب إليها أحد "القراصــنة" "فيروســا" "أتلف ذاكرتها"، سأدخلها على "النت" بدون "جدار حماية"، بدون "برنامج مكافحة الفيروسات"، سأبيت في حي شعبي، سأبيت في "الجبور"، سأبيت في "قباء"، سأبيت في "ناهيا"، في بولاق، ربما "يُثَبِّت" أحدهم رأسي ويسرق ما بها، سأبيت في أي مكان، حتى سأنتقل إلى ذلك الحي المجاور في "العوالي"**9**، وأعرّض رأسي لقطّاع الطرق في الليل أو في النهار، علّهم يسرقون نــصف الرأس، ويتركون لي نصفا، ولن أحزن لو طمع سارق في النصف الآخر، لن أحزن لو طمع فيها كلها، لن أحزن، فساعتها سأتخلص من حمل ثقيل يكاد يوقعني على الأرض ويقضي على آخر أنفاسي، لن أحزن، فساعتها سأجرب الحياة كما تعني الغريزة، سأجرب الحياة كما الحيوان، وسيكون أقصى مناي أن أكون إنسانا عاديا كسائر البشر، سأجرب الحياة، وربما أعود إلى مرحلة أولى، لا أحس بعري، سأنهل من ملذات الـــ... الدنيا، ليست الــدنيا يــا

9 الجبور وقباء والعوالي من الأحياء الشعبية في المدينة المنورة وناهيا وبولاق من الأحياء الشعبية في الجيزة.

صديق، لن تكون دنيا ساعتها، ولن تكون الآخرة، ما قبل السقوط، ما قبل الهبوط، "اهبطوا منها جميعا"، هل الهبوط معرفة أم المعرفة هبوط؟ هل المعرفة سقوط في الرذيلة أم الرزيلة هبوط إلى المعرفة؟ هل الوعي سقوط؟ هل الوعي خطيئة تستوجب العقاب، تستوجب التكفير على أرض ما كانت لي أم أنني ماذا؟ أن تعرف أن تسقط، أن تعي أن تموت، أن تعرف أن تهبط أن تنشر الحياة، هبوطك خطوة أساسية لبدء الحياة على الأرض، هل معرفتك ووعيك يستوجبان الهبوط؟ وإن هبطت إلى أي شيء تهبط؟ إنزال رتبة عسكرية، تقليل الرتبة، إنقاص الرتبة، لا أدري المصطلح المستخدم بالضبط عند أولئك العسكر الذين يراقبون كل شيء، هل الوعي الآن يستوجب الهبوط، أم أنه عقوبة في حد ذاته؟ هل المعرفة مرحلة سابقة على الوعي؟ أن تعرف أن تهبط، أو أن تعرف أن تعي، إذن الوعي سقوط، الوعي تكفير عن ذنب، الوعي عذاب، الوعي معضلة جسدية، معضلة ذهنية، موت للقلب، وعي على وعي على وعي، آه لو أحس بالحياة آه، أحاول الآن أن أغمض عيني، علّ هذا السارق الحبيب يتسلل من النافذة ليسرق نصف الوعي أو يسرقه كله، علّه يهب عليّ من إحدى زوايا هذي الصحراء في محطة الانتظار ويخطف النصف، ولن أجري وراءه، أنا الآن على إحرامي، في إحرامي، ولن أكون عنيفا أو غاضبا، لا رفس، لا فسوق، لا جدال، لن أفعل أي شيء، لن أفعل، فقط سأواصل الانتظار، سأغفو قليلا على هذه الصخرة كي أسهّل الأمر عليه، لكن الأرق يطاردني، مع أني في حاجة للنوم، فالغد يوم حج، يوم طواف، يوم سعي، ولابد أن أذهب لأكفر عن خطايا ربما ارتكبتُها ذات يوم، علّي أنغمسُ في الشعائر، في تجربة، علّي أعود وليدا، علّي أعود كما ولدتني أمي، فلا أحتاج لسارق أو قاطع طريق، الحج مغفرة، وذنوب رأسي لا تحصى، سأنغمس علّي أخفف قليلا من وطأة رأسي، من ثقل وعيي... آمين، آمين يا رب العلمين....

مَوَاطِنُ البـهجة

لم نحسم شيئا، رفضنا الاعتياد، لكننا اتفقنا على الالتزام بقواعد اللعبة، مادمت قبلت الاشتراك في هذه اللعبة – ربما لجهلك أو طيشك أو حمقك أو لإحساسك بالرجولة التي لابد أن تتشكل حسب الصورة التي تتراءى على جريد النخيل، فارتبطت بتربة بمحض إرادتك – لا يحق لك... تقول قلبك بيستعبط، يرفض الالتزام بما اتفقت معه عليه، يخفق عندما يرى الاختلاف، يتراقص طربا ممنيا نفسه بالائتلاف، معشما نفسه بالتكامل، متلهفا علـــى الاكتفاء بالآخر، وأقول لك ألم نحل المعادلة سويا؟ كل الأمور وجهات نظر، إذا كيَّفت وجهة نظرك وقنعت بذلك التكيف، ستجد فيها مواطن بهجـــة، استثمر كل إمكاناتها، من المؤكد أن لديها إمكانات – أليست إنـــسانة؟ – ومن المؤكد أن منظورك يحجبها عنك، وأنها تدرك أنك لا تراها شيئا جديرا بشيء، وأن ذلك الإدراك من جانبها يجعلها تتصرف بعصبية تزيد من بعدك عنها، أي أنك تساهم في تعميق الفجوة، وحياتك معها وصلت لمرحلـــة لا تحتمل الفجوات العميقة لأن كل الأطراف سيلحقها الضرر، لم تعدا مجـــرد طرفين، أنتما الآن مجموعة أطراف متشابكة، ليس القرار الذي اتخذته اليوم صائبا، لم أستطع التحدث معك، والحمد لله أنك كتبت رغبتك في الطلاق بالإنجليزية على برنامج الدردشة لأن زوجتي كانت بجواري وهما صديقتان، قلتَ لي قبل ذلك إن بوصلة قلبك تشير إلى مواضع شتى وأنـــك لا تحـــب

الثبات، خاصة إذا كان ثباتا تقليديا من صنع الأطفال الذين جاءوا إلى الدنيا من جراء زواجك، قلت لك من قبل إن الخطأ فينا، فهي مثل كل النـــاس، أرضية نعم، ولكنها تمثل الأغلبية، ونحن قلة في هذه الدنيا، نحس بخلاف ما يحسون، نفكر على عكس ما يفكرون، نحلق في السماء ونريد الإمساك بما يعدنا به الطيران، والإحساس بما تدخره لنا نبضات قلوبنا البكـــر، لكـــن للأسف صرنا جزءا من عالمهم لأننا في لحظة ما فكرنا أن نكف عن الطيران ونحط على الأرض لنستريح قليلا، وها نحن نكتشف الحقيقة، لكنه اكتشاف بعد فوات الأوان، ولا يمكننا التراجع عن شيء فعلناه بكامل إرادتنا وكنــا ساعتها في كامل قوانا العقلية وكنا ندرك إمكاناهما، لسبب بسيط وهو أن قرارك ترتبت عليه أشياء أنت لست في حِلٍّ منها الآن، ماذا أقول لـــك؟ لا أحاول إحباط عزيمتك أو كبت إحساس فار إلى سطح وعيك الآن، فقــط ألفت انتباهك إلى الضرر الذي ستسببه لعدة أطراف ليس لهـــم ذنـــب في حيوية مشاعرك وتجددها واستيقاظها من سباقما، ولِمَ لا تجـــدد مـــشاعرها وتوقظها؟ لابد أن لديها مشاعر، لابد أن الحياة كامنة فيها، إن لم تبصر شيئا فربما كان العيب فيك، ابحث، نقّب، وستصل إلى شيء بالتأكيـــد، النـــساء وجهات نظر، عليك فقط أن تزيل الجدران التي تتكتل أمام عينيك، فلتبدأ وبالتأكيد ستصل لشيء، البدايات دائما واعدة، لا يحق لك أن تتخذ القرار الذي تريده إلا بعد أن تبرئ ذمتك، وساعتها ربما لا تتخذه، لستَ علـــى الشط الآن تراقب ويمكنك أن تختار من تشاء، أنت الآن في عمق البحـــر، ومسئوليتك أن تنقذ جميع الأطراف، لا أن تغرقهم جميعا وتنجو بنفـــسك،

فنجاتك في هذه اللحظة خيانة، ربما ترى كلامي بلا معنى، وربما تقول إنني لا أحس بما تحس به، لا يا صديقي، ولكنني أحس بالمسئولية، نعم هي مسئولية ليست في صالحي بالمرة، فجزء من قلبي يرفضها، وشطر من عقلي يحاول التنصل منها، لكنني قلت لك من قبل إن ازدواج الشخصية هو الحل السليم في هذه الحالة، فلنعش بعدة شخصيات حسب الموقف والسياق، وليس قي ذلك رياء أو نفاق، بل هي أوجه من الشخصية تحافظ على سلامك النفسي وعلى حياتك الاجتماعية، وربما تكتشف في كل هذه الشخصيات نفسك وساعتها ستكتشف ثراءك، ستبصر تعددك... قد تقول لي إنك ذهبت ذات مرة لمستشفى عندما كانت مريضة وعندما سألك موظف الاستقبال عن اسمها ذكرت له اسم أخرى دون وعي والحمد لله أنها كانت مريضة ولم تسمع شيئا، يحدث أحيانا، ويخبئ لاوعيك الكثير مما يظهر في الأحلام، أحلام اليقظة وأحلام المنام، لكن هذه الأمور ليست بيدك، كل ما تستطيع التحكم فيه هو وعيك، وإذا ضبطتَ مؤشر وعيك نحو ما يصلح أطراف علاقتك، ستصلح ولو إلى حين إلى أن تجد تبريرات نفسية وعقلية أخرى تقنعك بإصلاح العلاقة، وهكذا، إلى أن يفعل الله ما يشاء، كل المطلوب منك الآن أن تنظر للموضوع من وجهة نظرها هي، ربما تكتشف أنك تظلمها كثيرا، لأنك في غالب الأحيان لا تعتبرها موجودة من الأساس، حاول أن تتخذها صديقة، قد تقول إنها لا تصلح، حاول أن تعدل وجهة منظورك وستجد فيها جوانب قابلة للبقاء والانصهار في علاقة الصداقة معها التي ستنشئها، حاول يا صديقي، وستكتشف أمورا كثيرة فيك وفيها. ...

أطياف تتراءى في مقلتيّ

لا بد أن هذه العيون التي ترتسم في مقلتي ترسم علامات ما، تقـــول شيئا، تنبهني لما قد فاتني، أنا الآن جالس أمام الكومبيوتر، أو هو الذي جاء من الغرفة الأخرى ليشاطرني الكتابة، يتأمل في حركة أصابعي التي تتـــردد على لوحة المفاتيح، لا تستطيع أن تحدد الحروف التي تختارها لترسم صورة تتردد في مؤخرة العين، لا تبين، أو لا تَثبت، لكنها تلح، تصر على المعاودة، وكأنها بقايا ذاكرة تلاشت وسط دوامة، دوامات تتلقفك بين الحين والحين، كل حين، تملي عليك شروطا لا صبر لك عليها، وعليك أن تصبر، عليك أن تواصل الدوران بعيدا عن صورة طفل يداعب ذاكرتك، طفل يحتـــبس خلف روتينك، يواريك في الغفوات التي لا تطول، وأنت تواريه في اليقظـــة التي لا تنقطع، تواصل تأزمك، أو تنقطع عن بساطتك، وتنغلق على لهارات تصر على الحضور الطاغي، فتطغى عليك أنت، وأنت في غفلتـــك، أو في حياة تظنها شطارة، تظنها حقيقية، تطغى على كل ما يراودك، أعرف أنك تراود ذلك الذي يراودك، تود لو أن تفتح له باب الذاكرة، تعيد دهانـــه، تجدده ليصير مسكنا، تأوي إليه كل حين، ذاكرة لا ترجع للوراء، تتملـــى

دائما صورة ترتسم أمامك في الأفق، ترنو إليها، أو لعلها بجانبك، داخلك، تود لو تخرجها، تود لو أنك هي، لو أنها أنت، لكنك سرعان ما تتناسى، وتعود إلى سائر عهدك، كل مرة تحاول أن ترتب ملفاتك وتصنفها لتحدد أولوياتك تبوء بالفشل، تجلس الآن، تحاول أن توازي بين الصور، ألبوماتك لا تتسع لكل ما يدور، ما يجري داخلك، تصر كاميرتك على التقاط ما يحلو لها، لا تراعي ما يدب داخل تلك اللقطات البانورامية، كلما حاولت أن تسلطها على لقطة أثيرة، تراوغك، تفلت من تحت زمامك لتلتقط صورة تليق بفارس لا وجود له، وما كنت يوما خيّالا، ولا امتطيت حصانا، لابد أن هذه العيون تود أن همس بشيء، تود أن تذكّرك أنت، لكنك تفشل في تذكُّرِ ما تلفت انتباهك إليه، حركاتها تبدو لغة يونانية لك، لا تستطيع التعرف عليها، تشتري قاموسا يونانيا، لكنك لا تستطيع أن تفك خطه، لا شرقية، لا غربية، وما في المصباح زيت، ما في المصباح زيت الآن، الآن فقط عليك أن تنشّط خلايا الذاكرة، عليك أن تصطفي نفسك قليلا أو كثيرا، تفكر فيما يلتف بك من خيوط، لا أحد يلفُّها حولك، لا مجال للأَسْرِ هناك، أنت من تلفّ خيوطا لا تراها ساعتها، لكنها خيوط، توغّل يا صديقي، توغل في لغة ما يرتسم في مقلتيك الآن، علّلك في يوم تصل إلى ما لم تستكشفه، علّلك تبصر ما لم تبصرَ به، فتقبض قبضة من أثرك تَدُلُّكَ عليك، تقبض قبضة تستكشف بها قسمات نور يتراءى في مقلتيك، انفض رأسك الآن علّ بصرك يصير اليوم حديدا، فتبصر من يدور معك في نفس الفلك اليومي، علك تعود إلى نقطة حميمية تبدأ منها.

صبّار

وعندما اقتربتْ كانت رائحةُ الصبّار تفوح من شعرها، شعرها الذي كنت تظن أنه أسود وقالت لك إنه بُنّيٌّ غامق، حتى الآن تظن أنه أسود، شعرها الذي تريدُ أنت أن تطلقه ليهيم على وجهه حول رأسها، وتصر هي على أن تدجّنه خلف رأسها، تأسره، هل وصل بك عمى الألوان إلى هذه الدرجة بحيث لا تعرف لون شعر زوجتك؟ كنت تعرف أن الصبّار مُرٌّ، لكنك لم تكن تدري أن رائحته منفّرة، بالرغم من أنه يغذي الشعر كما يقولون، يغذي الشعر أم يقتل إحساسك؟ صراع الكائنات، البقاء للمغذّي، لكنك كنت تزرع الصبار في صباك، وها أنت كلما ذهبت لقبر أبيك ترويه، لا تذكر السبب بالطبع، لكنك لا تحس بأنك كنت تنفر منه، كنت تقرأ في الكتب عن طعم الصبار، لكنك لم تقرأ عن رائحته، إذن أنت جاهل، لم يذكره صاحب رواية "العطر" ضمن الروائح؟ خلاصة رائحة الصبايا، لو كانت معك زجاجة واحدة لاكتفيت بها، دائما تبحث عن الخلاصة، دائما تعتقد أن هناك سرا كامنا ولابد من الوصول إليه، لو كان قد شم رائحته ما كانت قصته "قصة قاتل"، ربما لم يكن هناك سر يا صديق، تقبَّلها هكذا،

هكذا وكفى، ألم تقرأ أن آفة العرب الانبهار، وكنت تعتقد دائما أن الحب لا يقوم إلا على الانبهار بما تحب، لِمَ تحصر نفسك في فكرة اخترعتها، فرضية لم تثبتها؟ أنت الذي على خطأ، لِمَ تتوهم انبهارا؟ تقبّلها كما هي يا صديق، أليست تدخل الحمّام مثلك؟ كلّهن يدخلن الحمام، كلنا نأكل البصل، كلنا نعايش الصبّار، "عش كما أنت" أم أنك لم تستوعب تأملاتك؟ الحياة هي الحياة، حياتك مليئة بالبهجة، وأنت الذي لا تريد أن تكتشفها، أنت الذي تضع نفسك حاجز صد أمامها، أنت الذي لا ترى وبعد ذلك تصر على أن غطاءك كُشِف عنك "فبصرك اليوم حديد"، ماء، أجيء لك بكوب، كيف حالك يا وصال؟ صباح الخير يا حبيبتي، تحضر لها كوبا من الصالة، تجد رانيا بالحمّام، ازيك يا حبي، صباح الخير يا حبيبي، وحشتيني، أترى؟ بإمكانك أن تكون طبيعيا، بإمكانك فعلا، مازال أمامك الكثير لتتعلمه، التسامح يا فتى التسامح، التواضع، كلما عرفت أدركت جهلك، جهلك أنت برغم كتبك، برغم مكتبتك، برغم شبابيك إحساسك التي تفتحها على العالم ولكنك تغلقها داخل بيتك، برغم سيرك في الأرض، جهلك أنت، تُذكِّرك بأنك أنت الذي اشتريت لها هذه الزجاجة الكبيرة من زيت الصبار، هل اشتريته لها لأن زهور نبات الصبار في شرفة الشقة التي كانت مواجهة لشقة الجيزة كانت جميلة؟ أم تراه لم يكن صبارا ذلك النبات الذي بالشرفة؟ أو ربما اشتريتماها سويا، أفسد عليك زيت الصبار فلسفتك وانزويت، وأخذت تكايدك هي ومريم، تقرّب منك شعرها في بهجة مرحة لا تقصد سوى المزار وهي تضحك بملء شدقيها، فنِمتَ، لكن الساعة

البرزخية الفاصلة بين نومك ويقظتك تُسيل في رأسك الأفكارَ، فتعاودك حالة الصحو، صحوك أنت، وتريد أن تختبر فلسفتك، قد تقول طبعا إنك رجل شرقي، لا تأبه بمشاعرهن، كما يقلن أو تقلن النسويات اللاتي كنت تؤمن بهن، ربما مازلت، لكنها هي التي طلبت منك عندما كنت مع أصدقائك بالأمس وسألتها إن كانت تريد شيئا تحضره لها عند رجوعك، توقظها بلمساتك، فتثبت هي فلسفتك، ولا تحس أنت بوجود هذه الفلسفة أصلا، يتحالف الحمَّام والدش ضدك، يتآمران عليك يا فتى الأسطورة، فالماء ضعيف ولا تشعر بأي أثر للماء الساخن رغم أن السخان بلغ عنانه، فترتدي ملابسك وتعود إلى السرير الآخر مستسلما، تفرد البطانية وتدلف تحتها، لكنك تتذكر أن رد فعلك إزاء الدش ربما كان علامة، فتنهض، تفتح الخلاط الذي لا يُدِرُّ الماءَ، لكنك تصر على الفتح والانتظار، فيمتزج الماء البارد بالساخن وتتدفق المياه لتغسل عنك ما تبقى من درن، علاماتك في كل مكان يا سيدي، يكفيك أنك قادر على إثبات قدر مما تؤمن به، يكفيك، لا تؤمن على باطل، فتدلف إلى الإفطار والشاي والشيشة، ثم تبدأ، كل مرة تبدأ، ولكنك تبتسر النهاية، ألا تجلس للمراجعة؟ اشطب تلك النهاية من قاموسك، واصل بدايتك حتى نهايتها العفوية، لا تكن مستبدا دائما فتفرض فكرك على جسدها وتتحصن بنهايتك، لا يغير الله ما بقوم، ابدأ، وستجدك متغيرا، هلا بدأت برائحة الصبار من جديد؟ كيف تجدها بالله عليك؟ كيف تجدها؟

كلام خاص

توقف القلم فجأة، ها هي ابنتك الصغيرة أخرجتك من كتابتك، لأول مرة تراك مستيقظا بعد موعد نومك وتجلس في غرفة النوم – لا غرفة المكتب – وتكتب، تفتح عليك الباب بعد عناء، فعمرها لم يتجاوز العامين إلا بتسعة أيام... تجدك تكتب فتحتضنك في حنان بالغ، لكنها تشتِّتُ يدك عن الكتابة، ثم تتركك "لتخرّب" في التسريحة وما عليها من مساحيق وأصباغ وعطور، تُخرِجك، تسمح لنفسك بلحظات استبداد وتهمس لها بالخروج، تحسبك تناغيها، تُخرجك من حالتك، ترفع صوتك قليلا، فتصعد فوق الكرسي المكسور الذي اشتريته من "المناصرة"10 التي لا تناصر أحدا سوى التاجر اللعين الذي أعطاك أثاثا "على قد فلوسك" فانكسر بعد شهور، تخاف عليها بالطبع أن تقع من على الكرسي أو ينكسر بها لوح الزجاج، فيخرجك خوفك عليها وتلملم أوراقك وتخرج ممسكا بها وتغلق الباب خلفكما، تذهب إلى شيشتك بالمطبخ ومعك أوراقك بعد أن ترتِّبها لأنك كنت تكتب وتلقي كل ورقة تزرعها بالكلمات على السرير بجانبك.
صوت الشيشة يعزف أنغاما تحاول من جانبها أن توفِّر لك مناخا مناسبا للكتابة، ها أنت تنزلق إلى المكالمة التي أجريتها منذ ساعات، اتصلت بإحدى زميلاتك لتبارك لها على الماجستير الذي حصلت عليه اليوم، زميلتك تنهشها الغربة وتنكر الأصدقاء لها، أو بالأحرى الصديقات، فلم يعد أحد يسأل عنها، فقط على اتصال بصديقتك السابقة – "خلينا أصدقاء أحسن" – جملة أو عبارة مرت في المكالمة عنها أو معها في زمن آخر، أرجعتك إليها رغما عنك بالرغم من أنك لم تحاول أن تبدي اهتماما لافتا بالصديقة، بالرغم من أنك ذكرت أنك متزوج عن عمد، لكن يكفي أنك علمت أنها

10 مكان لبيع الأثاث في القاهرة معروف بأسعاره الرخيصة نوعا ما وبالتالي جودته القليلة ولكن لا ملجأ لمعظم الشباب العصامي الذي على وشك الزواج لشراء أثاثهم إلا إليه.

"متعثرة" نوعا ما في حياتها، ها أنت تمارس الخيانة الذهنية لتلك الجالسة في الصالة تستمع إلى كاظم الساهر و"دلع عيني دلع، دلع روحي دلع"، لكنك تعتمد بالطبع على أنها لن تقرأ ما تكتبه، فمنذ متى تقرأ لك شيئا؟

"ما الذي تريدين مني أن أفهمه من كلامك الخاص؟" قلتها لها، ابنتي طبعا، جاءت إلى المطبخ وأنا منهمك في الكتابة، لا أفهم منها سوى أن رجليها ابتلتا بالماء من رزاز الدش الذي ينساب على جسد أمها الآن، لقد تركت التليفزيون وكاظم الساهر وصباح التي تتغنى الآن بـــ "علمني الحب علمني" ودخلت لتأخذ دشا بعد ذلك اليوم الطويل من تنظيف الشقة، أعرف أنها لا تفهم سؤالي، لذلك تبتسم لي وتنتقل من الكرسي إلى المنضدة التي أكتب عليها وتجلس فوقها أمامي "لتخرّب" في علب الشاي والسكر والقهوة، وعندما أقول لها سأضربك، تنقر بيدها الصغيرة على مجموعة الأوراق التي أكتب عليها أو معها أو بها، وتقول لي "اتّب"، أي اكتب، فأعود إلى كتابتي وأتركها "تخرِّب"، ها هي تريد أن تأكل الشاي الناشف بالملعقة البلاستيكية الصغيرة التي تلعب بها، أحاول أن آخذ منها العلبة، فتسحبها مني بعنف، أقول لها "هاتي"، فتقول "لأ" التي تكررها طوال اليوم، ها هي أحسَّتْ بالملل من علبة الشاي، فتنادي عليّ وتعطيني إياها، ثم تنتقل إلى علبة القهوة! لا تمهلني الفرصة، فها هي تسكب البن على دولاب المطبخ والمنضدة أمامي، ولا أملك إلا أن أتوقف عن الكتابة وأمسح البن بالمناديل الورقية، آه يا مريم من شابه أباه فما ظلم، ومن شابه حبيبة أبيه فما ظلم، ها هي تجلس "مسكينة" على السجادة، ثم تنهض وتحاول أن تطوي هذه السجادة وتقف برجليها الحافيتين على البلاط في عز البرد، ثم تذهب إلى أمها بالحمام لتحممها، لا، تذهب لتعود إليّ بعلبة "برت بلس" وتفتحها وتحاول أن تدخل فيها ملعقتها الصغيرة، وها هي أمها تنادي عليها ولا تجيب، تسمع ما تريد سماعه، ولا تسمع ما لا يسير على هواها، ها هي تلقي الملعقة على الأرض وتذهب للحمّام أخيرا، تحكي لأمها بلغتها الخاصة كلاما متواصلا، ربما تحكي لها عما فعلته، وربما تشكو لها مني، وربما تعبر عن فرحتها بالاستحمام،

لكنها الآن تبكي من الصابون الذي هبط على وجهها وعينيها بكاء يجمع بين الدلال والألم الخفيف وكأنها تحتجُّ على شيء ما أو تتذمَّر من حالة ما...

ها هي مريم تعود مرة أخرى وتعطيني الآلة الحاسبة على أنها تليفون محمول، تطلب مني أن أتكلم مع الشخص الذي كان يكلمها، ربما عمها، ربما خالتها، ربما جدها، لا أدري بالضبط، عليّ الآن أن أتكلم، ثم تطلب من أمها أكلا، "ماما أمْ"، وأمها تقلي لها بطاطس بجانبي، لا يهمك يا حبيبتي، تحاول أن تأخذ مني "التليفون"، فتسقط قدمها بين حرف المنضدة ودولاب المطبخ، وبعد أن تنهض تخاطب شخصا في "التليفون" وتزعق له مستنكرة ما حدث أو تشكو بصوت مرتفع أو أي شيء من هذا القبيل... تسترسل في الكلام في تليفونها وتكاد تضربني به أو ترمي به على الأرض وهي تقول "أُف"، ثم ترمي بنفسها في حضني لأنزلها من على المنضدة، وتنتقل لتكمل مكالمتها في الصالة، ولكنها سرعان ما تعود وتعطيني "التليفون" لأكلم من كانت تكلمه، وعندما تمتلئ الصفحة وأخرجها من المقبض لأضعها جانبا تزمجر، ثم تأخذ مني التليفون مرة أخرى وتبدأ في الزعيق وشرح كل شيء في المطبخ لمن تكلمه، ثم تنفجر في قهقهة، فَرِحَةً بإنجازها، وربما فرحة بالبطاطس التي في الطاسة لأنها تشير إلى البوتاجاز، أخرجتني يا مريوم عما كنت أحكيه، تمزج مريوم نفسها بحضني، تضمني بذراعيها الصغيرين الحنونين، تصدر أصواتا فرحةً، ثم تخرج من حضني وتنظر في وجهي ضاحكة، وتعود إلى حضني مرة أخرى، وهكذا إلى أن تصير ضحكتها أطول ومفتعلة لكي تلفت انتباه أمها الواقفة بجوار البوتاجاز، تشير إلى البطاطس وتقول "تاتس"، فتجلس أمامي على المنضدة وتبدأ في الأكل وهي تردد وراء أمها "ميل" جميل، "لالاه" الله، تستلذ الأكل وكلما فرغت من المضغ تقول "أمْ" طلبا للقمة التالية وهي تلعب بالآلة الحاسبة أو تخبط بها على خشب دولاب المطبخ... يعلو الصوت التليفون مزمجرا. تلقيه في وجهي. تحتضن أمها وتخرج لك لسانها الصغير مُكايدة.

بحث عن الأسماء

الآن، عندئذ، الغد، أنا وأنت وضاع الـ "هو"، لا شيء الآن سوى الزخم، لا شيء الآن سوى البرازخ، هيا استرسل يا عزيزي، اعزف لحنك، أطلق موسيقاك في براري الصفحات، التكرار، هندسة الفراكتل، اعزف، لازمة القصيد، كل يوم منظور جديد، واصل، كنت تظن أن يوم الخميس ذلك التاسع من ديسمبر، وربما كان العاشر، وربما الحادي عشر، كنت تظنه يلخص كل الاختزال، يلخص كل الحياة ويختزلها في طياته، وما الاختزال بشَر، ما الاختزال بتواطؤ، علامات، علامات ليست كالعلامات، كنت تَظنٍّ أن أحداثه تكفي لكتابة رائعة، كنت تظن، وكانت الكتابة تظن شيئا آخر، وكان بعض الظن من غير إثم، وكان بعضه إثما، يبدو أن القلم يود ممارسة الاستبداد، وأدركتَ أن الكون رحب للغاية، يوم الخميس مجرد أحد الوجوه، فهناك ستة أيام أخرى يا صديق، وفي مخيلتك ما لا يحصى من أيام، مجرد أحد الوجوه، مجرد مجموعة من الأحداث العبقرية الزخمة العنفوان، تود أن توسع المدارك، لتشمل أشياء أخرى، تحيط بالكون علما، لكم في السفر حياة يا أولي المسير، سيروا في الأرض سيروا، سيروا في براح الصفحات، تدبروا، كنت تظن أن ما كان نصفا ثالثا نهايةُ الكون، هو أقصى ما تبتغي، فتداعى إلى ذاكرتك في اللحظات البرزخية، مرة تجده يلومك لأنك لم تتمسك به حتى النهاية رغم رفضه هو، مرة تجده يمد لك يدا لتنقذه، مرة يستحلفك أن "ترد عليه حياته"، مرة يتوسل أن يلتقط صورة بجانبك، مرة يهمس في أذنيك بكلمات حانية، مرة يبتهل لنسائمك حتى تهطل على بوار جسده... لكنك عاودت قراءة ساحر الصحراء، فوجدت أنك تعشق فاطمة، في واحة الفيوم، تعشقها لحافة الجنون، الهيام الأثير، ربما لأن موقفها من سانتياجو يختلف بشدة، ها هي تحثه على أن يواصل أسطورته، ها هي

تبعده عنها لكي يحقق ذاته ويرجع إليها، ها هي تجد لها هدفا في الحياة، لها من تنتظره مثل نساء الواحة، دون مخافة تصرّح، ها هي تبدأ في تعلم لغة الصحراء، ها هي ترسل همساتها في حنايا الرياح لتهب على وجهه، ها هو سانتياجو يدرك أن الرياح الشرقية التي لفحته في ربوع الأندلس هي تلك الريح التي تهمس له الآن بشوق فاطمة، ربما نفس الريح التي تعاونه لينقذ نفسه وساحره من بطش القائد الحربي الحكيم، عشق فاطمة، راودتك في البرازخ، راودت مخيلتك، وراودتها أنت عن لغة الصحراء، فتدرك أنك تفكر في قصتك أنت، تسخّر فاطمة شخصية فيها، تثريها، وتكتفي بأن تطلق اسم فاطمة على المولودة الجديدة إن كانت بنتا، حتى هذه لم تفعلها، أخذت تبحث تحت السرير أنت وزوجتك، تبحث في دواوين الشعر، في الروايات، في القصص، إلى أن وجدت ديوانا يسمى "وصال"، فأسميتها، أسميتماها، وظلت فاطمة رهينة هواك، وهمك، أنانية تعصف بك، تبحث في كل الوجوه عن مرسى، تفتش في كل الملامح عن سمة ترتضيها عنوانا، وما لك أن يكون لك عنوان، تتقاسمك البلدان، يتخطفك السفر فترحل، يا من كنت تفتش ترحل، لا أرض ترتضيك، ولا ترتضي سوى وطنا، وطنا يراود برازخك، يراودها في محطات الترانزيت، وما لك أن تجده، ها هي الدساتير تتبدل، ها هي المواثيق تتفتت، ها هو المنتخب العسكري يفوز بالبطولة المطلقة، لا أبطال ثانوية، لا كومبارس، وما لك بطولة مطلقة، ما لك، تكره المطلق على الأرض، ترفض كسر قيود النبت التي بداخلك، قيود النبت أنت، قيود معلقة بالأرض، بتراب كان لوطن، ترفض أن تدوس عليها بقلبك الذي بإمكانه القسوة، ترفض، تتشبث بالنبت، تتشبث بالصحراء، تتعلق بنسائم تهب عليك في قلعة صلاح الدين، للمرة الأولى تشعر بأن رائحة الموتى التي تحملها الرياح تراقص الموسيقى، لكنك لا ترتضي الرنو للوراء، تنظر خلفك في غضب، تنظر أمامك في غضب، تترك رائحة الموتى تعود إلى مرقدها،

وتنتقل إلى التفكير في كل الأسماء السابقة التي تخليت عنها، مي بعشقها للحياة، كتابتها المتدفقة حياة ونماء، مي بنغشها، نَغَشٌ كنت تود أن تستعيره منها وتكتب فيه كتابا كاملا، ربما كان ذلك الذي ما لا أدريه **Je ne sais quoi**، ربما كانت مي قرأته وترجمته بالنغش، ربما، نغش يتراءى في الأفق، تحاول عينيك أن تقبض عليه، تمسك به، تزرعه في أرض ربما ستكون، وتتخلى عن مَلَك، لكن ملك تخلت عن نفسها عندما استسلمت للفيوم وزوجها البدين الذي يحتل جسدها ولم يعبأ بها أو بكتابتها، ها أنت تعود إلى الفيوم من جديد، فيوم ملك، فيوم فاطمة، لم تكن تفكر أن ملك لها علاقة بالفيوم، ربما أدركَتْ لغة الصحراء ولكنها صمت آذانها عنها، ربما صمّتها قهرا. وتتخلى عن نرفانا بتوحدها في عالم اللامحدود، عالم الروح والفناء والتوحد، لكنك تمقت الفناء، لا ترى الروح أمامك، تحتاج الآن إلى جسد حتى تحل فيه الروح، أم تراها ستظل فكرة تؤرقك؟ لن ينفعك مجلس أمن ولا مجلس حرب، عالم الانطلاق وفك القيد، وربما التقييد بقيد جديد، لكنك تعيش على أرض، على أرض ليست لك تعيش يا فتى، وتريد أن تجمع بين العالمين، المادة روح، الروح مادة، البرزخ يا صديق، مرج المادة والروح يلتقيان، البرزخ، تعيش في ذلك البرزخ الفاصل بينهما، البرزخ الذي لا تستطيع أن تقول إنه هما، ولا تستطيع أن تقول إنه ليس هما، مخيم على الحدود، لا هنا، لا هناك، وها أنت تتخلى عن جومانة، ذلك الاسم الذي كنت تدرك دلالته، لكنها تغيب عن ذهنك الآن، ترسب إحساس جميل به، نعم أدرك أنك تريد أن تستغل فاطمة في قصتك، وأنت تكره الاستغلال، أو على الأقل هكذا تعلن، ما الفن إلا استغلال كبير، داخل كل منا مستغل صغير، وكنت تظن أن الحب، أو ما يسمى هكذا، أسمى من كل شيء، ووجدتك تفكر في قصتك فقط، فيها فقط تفكر، وتريد أن تسخّر الكون بأسره لها، وكنت تمقت عصر السخرة، كنت تمقته يا فتى، إذن هي

محبوبتك، مكتوبتك، مرويتك، وقصتك، هي أنت يا فتى، هي أنت، وأنت من؟ أأنت كل أولئك الذين صادفتهم في حياتك؟ أأنت كل هذي الوجوه؟ أم تراك توحدت بذاتك واكتفيت؟ ووجدتك تهيم عشقا بالقصة المبتغاة، ووجدت أنها أكبر من مفردات عالمك الشخصي، وتريد أن تلتحم بعوالم أخرى، أنت تريد، وهي تريد، لكنك كنت في كامل صحوك، صحو لا يعكّره تعليق أو حادث أو كلمات، فتبحث، تبحث عن عالم لابد أنه ممكن، ها هي الكلاب تطاردك، إلى أن تنمحي أو تختفي، تصير مأدبة للسباع والغربان، على الطرقات، في الدروب، كلها صحراء، صحراء صمتت لغتها، أو أن أوانها ما حلّ، ها هي الآذان لا تلتقط شيئا، أكان العيب في الصحراء أم في الآذان؟ الصحراء، الجنرال الحكيم في صحراء الفيوم، يطارد الساحر، يطارد سانتياجو، ها هو يرسل أتباعه لضربه عند الحفرة بجانب الهرم، الكلاب، تعلو بك الروح وفتنتها، تعلو بك، تراها أحيانا، فتنة الروح، ثرية، عفية، خصبة، تنبذ عروس النيل، ما لنا حاجة إلى عرائس حتى نفيض، لا قرابين بعد اليوم، ارجعوا العروس إلى حيّها، تختال في حسنها، تختال في بهجتها، "عروس المدائن"، في البرزخ تتراءى لك، تتراءى، وما من لغة، ما تلتقط الآذان شيئا، ضاعت حروفك هباء، هباء ضاعت، وهباء عانيتَ، لا، لابد من نثر الحروف في كل الأجواء، علها في يوم تنبت، لابد أن تنبت ذات يوم، نبوءة واعدة، لا عروس بعد اليوم، فقط أرض تنبت وطنا، تنبت سكنا، وتستدرج الفتنة، يستدرجك الحظ الذي يحالف، يستحضر المصادفة، يستحضر المواتاة، يترابط الخيطان، لا، الخيطان من مفردات اللعبة، يترابط الوتران، الموسيقى أجمل، سيمفونية السرد، ويروق لك الموج الذي يشدو، تروق لك ألحانه التي تذيب الصخر، بنداها الندي تذيبه، وتحضرك لغة الصحراء، يحضرك السيميائي، وتهمس في أذنك لغةُ الجِمَال، ولغة الزيتون، لكنك مللت السلام، مللت الكلام، ومللت حرب

العصابات، تتردد الأصداء، يواتيك اللقاء، ويحز في روحك الفراق علامات أو حزازات، لا يهم، لكم في البحث حياة يا أولي الأبحاث، سر، سرْ في رأسك لترى كيف الحال، لا، يطفو على سطح ذاكرتك المواّرة الهادرة الممتزجة المتنافرة، إنه القبول والرفض إذن، هي كل شيء، ذاكرة الجسد أم جسد الذاكرة؟ تحس أن ذاكرتك جسد يعيش في ... من المفترض أن تضع حدا مقصودا لهذه القصـــ(يد)ة التي لا تريد أن تكتمل، ترى في اكتمالها موها، وفي موها الفناء، ما عدت تعشق النرفانا، وها أنت أسميت ابنتك وصالا، نقطة برزخية أخرى، مرج القصيدة والقصة يلتقيان... من المفترض أن ينقطع التيار، فجأة، تكتفي بك الحياة وسط البدايات، لا نهاية، لا اكتمال، لا شاطئ، من المفترض، لكن هل بدأت حقا حتى تنتهي؟ وأنت بداياتك كثيرة، ستموت آلاف المرات، وأنت لم تبدأ بعد، إذن تعمدت ألا تبدأ، تعمدت أن تظل حيا، تعمدت أن تموت أولا، قصدت أن تضللنا نحن الموتى الذين نقف على أعتاب بدايتك علنا نلج منها، وها أنت الآن تكشف عن أسنان قلمك وتلوذ بالأنانية، مرة واحدة من نفسي يا صديق، لحظة أبتغيها، هل يظل المرء يعطي للأبد؟ ألا يتضمن العطاء الأخذ؟ لا تعرف ما ينبغي عليك قوله، دائما تكتشف أنك جاهل، كلما ذقت تذكرت النقص، واجهك النقص، بترك النقص الذي سيحل، كلما تحررت تذكرت القيد، الآن فقط عرفت مغزى الكلمات العفوية، تحس بأن قلمك يحتاج إلى بارود ما حتى ينطلق عفويا، ويملأ جداول الصفحات مهرولا أو منسابا أو متواضعا أو جياشا أو في كامل عقلانيته ونشوته وسكره اللذيذ، هيا ابدأ يا صديق، هيا يا...... وطن...

تنتاب نظراتك وجوه

تنتاب نظراتك وجوهٌ، تدوس برفق على مقلتيك وتهمس لك بكلمات أغانٍ قديمة وحديثة عن الفراق والسفر، تعرف أن الموقف أقوى منك، تتظاهر بالثبات، تربِّتُ على كتف هذا، تحتضن ذاك، تبتسم في وجه آخر، تدرك أن حركاتك عصبية، تنتحي بهم جانبا في صالة المطار وتشرعون في همس كلمات لحنان ماضي أو محمد منير أو مارسيل خليفة أو أنغام أو صباح فخري أو... قاسمكم المشترك، تعاودكم أغنية صباح فخري التي كنتم تشاهدونها في السيارة في طريقكم للمطار، تبصر دمعة تغرورق في عين أحدهم، ترفع صوتك: ها هي الدموع تتشاجر في عينيه، لا يحتمل الفراق، لا يطيق لحظات الوداع، يحس بأن الأرض تتهاوى تحت قدميه، يميل بعينيه جانبا مخافة أن تلتقي العيون. يضربك بالكتاب الذي في يديه مبتسما، والله فراقكم يحزُّ في قلوبنا، لا تبتئس يا صديقي، قدري، وقد يكون قدرك بعدي. دقائق لا تريدونها تمرُّ، تتمنون أن يتأخر السماح لك بالدخول أو تتأخر طائرتك، ولكن مكبِّرَ الصوت ينادي، لابد من الرحيل، ها أنت تخونهم وترحل، ما بيدي شيء، سُنَّة جمع المال، على الأقل سَنَة لتسديد الديون، بعدها قد تفكر في الأمر، تحتضنهم جميعا، تتمنى لو تحتفظ بهم في حضنك حتى صعود الطائرة، تراوغ مكبر الصوت وتخرج خارج الصالة، تدخن سيجارة معهم بالرغم من أنك لا تدخن السجائر، تستنشق الدخان بعمق، تملأ رئتيك من هواء المطار، تعرج بعدها إلى الصالة، تجر حقائبك، تمسك بك زوجتك بيد، وتحتضن بنتكما الصغرى بيد، وتمسك بنتكما الكبرى بطرف حقيبة، أول مرة تسافر، تسأل عن الإجراءات، عليك أن تذهب إلى الميزان أولا، تمسك ببطاقاتكم وتذهب إلى الضابط، أين المدام والأولاد؟ بجانب الحقائب، لابد أن أراهم كي أختم لك، تعود، تجر حقيبة اليد، تعلق

حقيبة الكتف، وتسير بهم، يختم لك، تصعدون السلم، عليكم بالانتظار في الصالة العلوية حتى ننادي عليكم، لحظات تمرُّ، عليك الانتظار ساعة ونصف، لا تفهم سبب الإصرار على الحضور مبكرا رغم سهولة الإجراءات، عايزة مية يا بابا، حاضر يا حبيبتي، زجاجة الماء الصغيرة بخمسة جنيهات، أولى خطوات النصب، خمسة وسبعون قرشا، لا مفر، تشتري زجاجتين، ينادي مكبر الصوت، عليكم بالانتظار في الصالة الداخلية، تبحث عن تليفون، تُدْخِلُ الكارت، تكّلم إخوتك الساهرين وأصدقاءك الذين ربما كانوا مازالوا منتظرين بصالة المطار، فرغتُ من الإجراءات وفي انتظار الطائرة، عندما أصل سأتصل بكم، تعود إلى زوجتك وبنتيك، تحمل البنت الصغرى وتجلس بجانب الحقيبتين، تعطي زوجتك الكارت لتتصل بحماتك، تسيرون في الطابور حتى باب الطائرة، تدلكم المضيفة على مكان مقاعدكم، تلقون نظرة أخيرة من النافذة قبل أن تحلّق الطائرة في الهواء، يعود عقلك الذي كان منشغلا بتجربة السفر الأولى إلى السعي والدوران، صورة جماعية يا جماعة، "التصوير الأخير"، تصطفون وتلتصقون ببعضكم كي لا يخرج أحد عن الكادر، تلتهمون كل ما تبقى من عنب وتفاح وموز في نَهم، تأتون على باقي السندوتشات، ربما كان "العشاء الأخير"، تشغّلون على الكمبيوتر باقة من أغانيكم المفضلة، تسترقُ العيونُ النظرَ خلسةً، كل منكم يحاول الإمساك بلقطة قد يعيش عليها كثيرا، تحسون بنشيج في أصواتكم، تحاولون أن تداروهُ بالتماسك، تصعد زوجتك بما تبقى من أشياء إلى جارتكم، ما حاجتنا بها! دعواتكم لنا عندما تصلون، السلام أمانة للحبيب المصطفى، وادع للأولاد بالتوفيق في الجامعة وللولد الكبير بالوظيفة والعروسة، لا تنسي أن تسدّدي إيصالات الكهرباء والماء، لو خلصت الفلوس رنّي لي وأنا أتصل بكِ وأبعث أحدا من شلة زوجي إليكِ، يساهمون جميعا في حمل الحقائب إلى السيارات الثلاث لأصدقائك، سنسير في صلاح

سالم، ولو افترقنا سنكون على اتصال، صديقك لا يحتمل اللحظة ولو أنه تيقن أنك لن تغضب منه لما جاء ليوصلك بسيارته، يظل صامتا على عجلة القيادة، وعندما يخرج عن صمته يعطيك بعض النصائح، ترد عليه بنصائح مثلها، كأن حياتكما وعلاقتكما تركزت في تلك اللحظات، تراهم في العربة الأخرى، يضعون اللاب توب أمامهم بالسيارة ويشغلون حفلة صباح فخري، للمرة الأولى يدور صباح فخري في شوارع القاهرة وللمرة غير الأولى تدور نشوة الطرب في هذه الشوارع، كنتم تجوبون شوارع السيدة، بل السيدات، زينب، عائشة، نفيسة، سكينة، شوارع القلعة، تترنمون بالحياة، الفن، المستقبل،كنتم.... وها أنتم تجوبون شوارع أخرى، لكنكم لن تعودوا جميعا، ستفقدون واحدا، واحدا فقط حتى الآن، من يدري؟ تنهال عليكم المكالمات ممن لم يتمكَّنوا من المجيء، الانتخابات صباح الغد، وكلٌّ لجنتُهُ في مكان، لا بأس، ففي حميمية الصوت ما يكفي، لا يملك الواحد تحركاته، من كان يدري أنك في خلال شهرين ستتعاقد وتسافر؟ من التالي؟ بالأمس كانت محطة القطار نقطةَ التقاء ووداعٍ، يبدو أن القطارات صارت موضةً قديمةً، صارت المطارات جزءا من حياتكم، اليوم تستقبلون أحدكم، غدا تودعون آخر، لا يسمح الضابط بتوقف السيارات أمام الصالة، تُنْزِلُون الحقائبَ بسرعة وتنصرف السيارات لتركن في الموقف، تقفون أمام الصالة، تنتاب نظراتكم وجوه بعضكم البعض، تحبسون دموعا تحاول التمرد، يحاول كل منكم أن يتكلم كثيرا كي لا ينشغل عقله بشيء، تختلط البسمات بالنظرات الجانبية بمحاولات التماسك بكلمات حميمة، وتغيب بعض الوجوه.

الكلام السيّار

تسكن في عمارة مجاورة للتي يسكن بها. تقف على الجهة الأخرى من الشارع، تشير بيديك للسيارات المارة، ينادي عليك من أمام العمارة، لا تعيره اهتماما، تتظاهر بأنك لا تسمعه، لا يريد أي تاكسي أن يتوقف، ينادي عليك، ترفع رأسك في مواجهته لتَحيَّته، يشير عليك أن تذهب إليه، ربما كان يحتاج شيئا، "ستجيء سيارة"، تَضطَرَ للركوب، فعلاقتك به ليست قوية لدرجة التَفَهُّمِ، كما أنك لو اعتذرت سيعتبر ذلك إهانةً له، فهو مثلك في هذه الحالة يركب سيارة ليست سيارته، أي أنه يفرض نفسه على زميله، فلو قلت له لا تريد أن تفرض نفسك على أحد، سيتَّخذُ منك موقفا عدائيا على الفور قد يولد مضاعفات في العمل مما قد ينقله من أشياء لم تحدث أصلا، ففي بيئة كهذه عليك الحذر من أي شيء، يحدث أو لا يحدث، إذ قد يؤدي هذا الشيء ببساطة إلى إلغاء عقدك، الكلام السيَّار هو الحقيقة بعينها ولا شيء آخر، تركب، تجلس في الكرسي الخلفي، لا كلام، ولا حتى ترحيب أو ابتسامة من صاحب السيارة، تحس وكأن أحدهم يقطّعك بسكين صدئة وليس المطلوب منك أن تصرخ أو تستنجد بأحد، عليك فقط أن تجلس وكأن شيئا لم يحدث قط، كأنك تركب تاكسيا أو مع صديق ...

ما من مَخْرَجٍ أو سبيلٍ للتَّعَلُّلِ بأي شيء والنُّزُول في منتصف الطريق واستقلال تاكسي، فهو يعرف تماما أن عندك محاضرة في الثامنة صباحا، وكأنه يحفظ جدولك عن ظهر قلب، يدخل من الباب الخلفي للكلية، يتوقف بجانب المبنى القديم، فقسم العلوم مازال به ولم يُنْقَلْ بعد إلى المبنى الجديد، تَنْزِلُ وأنت تتصنَّع ابتسامةً وتشكر صاحبَ السيَّارة الذي لا تعرف اسمه، تذرع الخطوات لمدة عشر دقائق نحو الجهة الأخرى من سور الكلية

حيث يقبع المبنى الجديد وقسم اللغة الإنجليزية به، تتمنى أن تبتلعك الأرض، لا أحد يسير على قدميه في تلك الأماكن، من معه سيارة يوقفها حيث يريد بجانب السلم الذي سيصعد منه، ومن يركب تاكسيا يتوقف به حيث يشاء، ترى العيون تتلصص إليك من خلف زجاج السيارات، ما الذي جاء به من هنا؟ لِمَ لم يأخذ تاكسيا حتى المبنى؟ هل ركب باص النقل الجماعي الرخيص فأنزله عند الباب الخلفي على الطريق الرئيسي؟ يا له من "نتن" يتقاضى راتبا كبيرا ويبخل على نفسه!! تحس بالغضب لكرامتك، كيف تركب مع رجل لا تعرفه؟ كيف تفرض نفسك عليه؟ يبدو أنه يخاصم الحميمية، لم يبتسم لك أو يرحب بركوبك، لكنه له عذره، بل هو الذي على صواب،كيف يفرض عليه د. غسان شخصا لا يعرفه؟ وربما لا يرحب بركوب د. غسان معه أساسا، ومن ذا الذي يقبل أن تصير سيارته بعيدا عن تصرفه وكأنه لا يملكها ولم يدفع فيها ذلك الجزء من رواتبه ذات يوم؟ ألا نتقاضى جميعنا بَدَلَ مواصلات مثله؟ بالطبع لا يعرف أنك لم تتمكن من استخراج رخصة القيادة بعد، ولا يعلم أن محاضراتك موزعة صباحا ومساء بحيث تستهلك يومك كله ولا تدع لك وقتا لحضور دورة تعلُّمِ القيادة، على كلٍّ، كل هذه الأمور لا تخصه، فما ذنبه؟

تتعمد عند خروجك في الصباح من باب العمارة أن تتجه يسارا ولا تعبر الشارع إلا بعد عشرات الأمتار كي لا تكون في مواجهة د. غسان أو تلتقي عيونكما أو يفرض عليك شيئا... تخرج متأخرا فتندفع من باب العمارة نحو الجهة الأخرى من الشارع مباشرة، تشرع في التلويح للتاكسيات، ينادي عليك، تتجاهله، وعندما ينادي بصوت مرتفع لا يدع لك فرصة للتجاهل، تشير له بيديك بإيماءات توحي له بأنك غير ذاهب إلى الكلية مباشرة، وإنما ستذهب إلى مكان آخر قبلها، تشير بالرغم من أنك تدرك كذبك وترى استغرابه، لكنك ترسم علامات جادة على وجهك

وتبتسم له ابتسامة عريضة؛ وعندما يصل الدكتور الذي لا تعرف اسمه، يبدو أن د. غسان يقول له إن د. – لا تعرف إن كان يذكر اسمك أم لا – يقف في الجهة الأخرى، يضغط على كلاكس السيارة، فتنظر إليه مبتسما وأنت تشير بنفس الإيماءات. تطير من الفرح عندما ينصرف بسيارته وبدكتور غسان وكل ما يربكك ويحرجك ويثقل على قلبك ونفسك.

تتأخر عن موعدك بعشر دقائق لتتيقن من أنك لن تجده واقفا أمام العمارة المجاورة، فتعبر الشارع وتتنفس الصعداء عندما تنظر بطرف عينيك ولا تراه. وبينما تشير للتاكسيات، تجد يده تلوِّح لك من الجهة الأخرى، ولكن على الجانب الآخر من العمارة التي تقطن بها وليس الجانب الذي به عمارته. لا تعرف أين كان في ذلك الصباح، يخطر ببالك أنه ربما كان يقف أمام العمارة التي يسكن بها أحد أبناء بلدته حتى يراه ويركبه معه عند خروجه للكلية، وعندما لم يجده جاء ليراك، ربما كان أحد سَيُرْكِبُكَ مجانا ويركب معك، يسلّم عليك، اليوم سأركب معك لأن الدكتور ما جَاء، أهلا بك يا دكتور، وتشير للسيارات إلى أن تتوقف سيارة... تركبان في المقعد الخلفي، وقبل أن تستريحا في جلستكما يسألك عن الأجرة التي سيأخذها السائق، تتبادلان كلاما عن الجو والغيوم ويحكي لك عن السيول التي ستنْزل يوما ما وستعيق السيارات، بل وستجرف كل السيارات في طريقها وكيف أنه يحمد الله لأنه لم يشترِ سيارة، لأنه لو اشتراها لكانت قد انجرفت مع السيول وأنفق عليها كثيرا حتى يصلحها و......

يدخل السائق من الباب الخلفي، يطلب د. غسان منه أن يتوقف لكي ينْزل، يضع يده بالقرب من جيبه، فتحلف عليه ألا يدفع شيئا، يتنفس بارتياح ويبعد يده عن جيبه فرحا، تتنفس الصعداء وأنت تكمل المشوار بالسيارة نحو المبنى الجديد، تحس بأن السيارة تتراقص بك، تتمنى لو يدير السائق شريطا من أغاني عبد الحليم الراقصة، لكن الأغاني لا تُنَال بالتمني، فتدخل المبنى وأنت في أسعد حالاتك.

مواطنٌ وحاملٌ ومقيمٌ

إهداء إلى **داود عبد السيد** وفيلمه"مواطن ومخبر وحرامي"

الطريق مِلْكُه، من حقِّه يفعل ما يشاء، كيف تفكِّر في قيادة سيارتك في الشارع بينما هو يقود سيارته؟ سيصدمك ويتعداك، من قال لك أن تسير أمامه؟ من سمح لك أن تسير في عرض الشارع؟ لو أنت رجل اضغط على بوق السيارة أو أعطه إشارة! مواطن وله الحق في أي شيء، ماذا أنت بجانبه أيها المقيم؟ أنت مجرد مقيم حقير تكتفي بما يتيحه لك من بقعة في الشارع مهما تمادت في الصغر، حتى لو وصل الأمر إلى أن ترفع سيارتك على الرصيف حتى يمر، ألو، حادث سيارة، المقيم على خطأ، الاثنان مقيمان، المصري على خطأ، الاثنان مصريان، الصعيدي على خطأ، ادفع بالتي هي أحسن...

كيف تصدم سيارته أيها الحامل؟ أنا الذي كنت أسير أمامه، كيف لي أن أصدمها؟ ينهال الحامل على العسكري بالضرب، يتألم العسكري، يتصل برئيسه، ليس بيده شيء، يتصل الحامل بسفارته، يخرج ظافرا.

يركن المقيم سيارته على جانب الطريق في "الحراج"11، ينفخ المواطن في بوق سيارته، يتعجب المقيم، ينظر إليه، يشير له المواطن أن يفسح الطريق، الطريق أمامك، أنا بجانب الطريق، وهناك متسع لمرور خمس سيارات بجانب بعضها، إنني أريد أن أمرَّ من هنا، أنت مقيم قذر، تكبر "العملية" في رأس المقيم، الطريق واسع أمامك، مُرَّ كما تشاء، أنا واقف

11 مكان بيع الأشياء المستعملة.

هنا، أنا سأتصل بالشرطة، ألو واحد أجنبي يسد الطريق، وعندما قلت له سأستدعي الشرطة سب الشرطة والمواطن، تكبر المسألة في رأس المقيم، لن يتحرك من موضعه حتى تجيء الشرطة وترى ما هو حاصل، يتوجَّه المواطن إلى ضابط الشرطة، هذا المقيم سب الشرطة وسب جلالته، يفلت زمام المقيم، هذا المواطن كذاب، لم يحدث أي شيء، هل أخطأت عندما ركنت سيارتي بجانب الطريق؟ ينظر الضابط يمينا ويسارا، أدخله المواطن في موقف محرج، يكتفي بتوجيه اللوم للمقيم، ينصرف مثرثرا مع المواطن، يخرج المقيم بسيارته إلى الشارع الرئيسي، تمر سيارة من يمينه دون سابق إنذار وتمر أمامه متجهة إلى يساره لتعبر الشارع متجاوزة الرصيف، يضغط المقيم على بوق السيارة، تنهال عليه الشتائم من كل صنف ولون، الأب، الأم، الأعضاء، تتوارد الصور حية أمام عينيه، يفترض أن الامتحانات انتهت، وفرغت لجنة القبول والتسجيل من مهامها، يذهب المقيم بعد انتهاء مجلس القسم إلى مقر اللجنة، فقط ليتأكد أن كل شيء تم القيام به، أو بالأحرى زيادة في التأكد، فلقد فعل بنفسه كل شيء، كان الأعضاء المواطنون يجيئون لإلقاء التحية ثم ينصرفون، يجد باب اللجنة مغلقا، يمر على سكرتيرها المواطن في الغرفة المجاورة، لِمَ لم تأت؟ سأل عليك كثيرا، هل هناك عمل متبقٍ؟ يبدو لا، لكن قبل أن تنصرف مُرَّ عليه؛ ينظر إليه الوكيل ببرود، أين كنتَ؟ ألا تعرف أن هناك الكثير من المهام التي لم يتم القيام بها بعد؟ لقد أنهينا كل شيء، أأنت تكذِّبني؟ اذهب إلى عملك، هناك قوائم ونتيجة في انتظار الإظهار وأشياء كثيرة في انتظارك، يأخذ مفتاح غرفة اللجنة، لا يوجد شيء، عليك الانتظار، ينتظر، يكتشف أنه عليه الانتظار حتى ينصرف سعادته مهما تأخر في مكتبه حتى المغرب...

كان المقيم يجلس في مكتبه، يمر عليه رئيس القسم الخامل، لِمَ لا تعمل؟

فرغت من المحاضرات وها أنا أقضي الساعات المكتبية لكن لا يوجد طلاب، تعالَ إلى مكتبي، هناك أعمال كثيرة، خُذْ هذه المسودَّات التي كتبتموها بالأخطاء الواردة في الكتاب الدراسي، صِغْ منها مذكِّرة نرفعها للإدارة، تعبر ذهن المقيم أن ذلك من اختصاص الرئيس، لكن لا مفر من القبول وإلا قُدِّمَ للمساءلة، يجلس في غرفة الرئيس، يفرغ من المذكرة بعد ساعتين، كانت قد مرت ساعة على موعد انصرافه، في الصباح يجد أن الحامل قدَّمه للمساءلة لأنه لم يحضر الساعات المكتبية في مكتبه بالأمس، تخطر بباله هزيمة منتخب كرة القدم للبلد الأصلي للحامل رئيس القسم أمام منتخب بلده بالأمس، فلا يعرف إن كان عليه أن يضحك أم يسخر أَم يكتب قصَّةً... الأمس، كان بالأمس يحضر اجتماع مجلس القسم من العاشرة إلى الحادية عشر صباحا، يجد في الصباح مساءلة، لماذا لم تحضر الاجتماع الذي دعاك إليه العميد بالأمس من العاشرة حتى الحادية عشر؟ من قال إن هناك اجتماعا؟ كنتُ هنا بمجلس القسم ولم تذكر لي ذلك، بعث العميد خطابا منذ أسبوعين، لكنك لم تخطرني بشيء، ليس ذلك بعذر، من المفترض أنك تعرف، ينفعل المقيم، كيف أكون موجودا وأُقَدَّمُ للمساءلة؟ يجد أن انفعاله سيجلب له مساءلة أخرى، كما يكتشف أن الحامل أخفى الخطاب عن عمد لأنه لم يتمكن من إيقاعه في الخطأ ووجد أن إخفاء الخطاب فرصته الوحيدة لمساءلته، يكتب في ورقة المساءلة لم أكن أعلم، كما كنتُ أحضر اجتماع مجلس القسم في نفس الموعد ولو كنت أعلم لَلَبَّيْتُ النداء على الفور...

يسير بسيارته في بطء على جانب الطريق، يحاول أن يتفادى أي احتكاك بأحد، يكاد يصطدم بسيارة مواطن كان قد تركها في عرض الشارع ونزل للتسوق في أحد الأسواق الكبرى بالمدينة، يتحسبن ويتحوقل، يتفاداها في آخر لحظة، يعود إلى شقته، يقرر آلا يخرج بسيارته إلا عند الضرورة.

ولد يقاوم التشليح

ولد يعاند دخانا يتشكَّلُ في حدوده، يلوّح بيد سميكة علّها تبدِّد طبقة من طبقات الدخان، يصر الدخان على التَّكتُّلِ، يضربه بيد من حديد، فيسقط الولد في دائرة الضباب، يرتشف قطرة من فنجان القهوة الكشري بالنعناع، القهوة التي توصل إلى طريقة صنعها حديثا، بعد أن باءت جميع محاولاته لتحديد نوع البن الذي يتوافق مع رأسه بالفشل، فبدأ يصب الماء الساخن على البُنِّ وورقة نعناع وملعقتين من السكر، بُنٌّ بلا أية إضافات، قال له البائع، هل أضيف لك الهيل على البُنِّ؟ لا، ربما لأنه لم يفهم طعمَ الهيل ساعتها، فجاء البن قُحًّا كَرُمَّانٍ أخضرَ كان يقطفه من الشجرة في بلدته لأن الرمان هناك لا يستوي أبدا، الأطفال دائما يقطفونه، ربما يأكلونه، ربما لا، لكنهم يقطفونه، وربما لأن الطفولة كانت تداعبه فأخذ يقطف مثل بنته، يرتشف رشفة، ينظر إلى التعميمات الجديدة المعلقة على اللوحة بالغرفة، تعميمات تُعَدُّ جزءا من العقد ولابد من الالتزام بها، يتذكر التعميم الأخير الذي جاء متأخرا عن موعده، وعليه أن يلتزم، كيف؟ لست أدري يا عم "أبي ماضي"، لست أدري حقًّا، يرتشف آخر رشفة، يغسل الفنجان جيدا ويسرع إلى الفصل، عيون تحملق فيه أو هو الذي يحاول أن يستنطقها، علها تفصح عن تفاعل، علها تثبت وجودا لها في براح الفصل، يدندن همسا بأغنية عفاف راضي "وحدي قاعدة في البيت"، دائما ترد على باله هذه الأغنية عندما تُحِدُّهُ حدودُ الفصل، يعاود التبسيط، يُخرجون جوّالاتهم ويستخرجون معاني لا معنى لها، لن يتعلَّمَ أحدٌ منكم شيئا مادمت هذه

البرامج الخارجة على السياق تستعبدكم، الكلمة لا تُفهَم إلا في سياقها، عاش الجوّال، مات الجوّال، لا بأس، لا بأس، فلننظر للأمر من منظور آخر، يكتشف أن لغته غير مفهومة، يتكلم عن أشياء لا داعٍ لها:

– لَمَ لم تكتب موضوع التعبير؟

– الكتاب كان في السيارة.

– ولَمَ لم تخرجه منها وتأخذه للبيت؟

–آخذه في نهاية الأسبوع، اليوم الثلاثاء.

– أهلا بكم، لا بأس، أمامكم ربع ساعة للكتابة

***

تنشط في الفاصل ذاكرتك المؤقتة، سائق التاكسي، لا، اللغة لا تحدد، صاحب السيارة، أول ما يسألك ما راتبك، "لِمَ تسكن في هذا الشارع الغالي؟" تتهرب منه بكلام عام لا يكشف شيئا من الحقيقة، العيون في هذا المكان تطاردك، تنظر بطرف عينيك إليها وهي تفتش في الأكياس التي تحملها وأنت خارج من محل البقَالَة، وكأنهم لا يستلمون رواتب تفوق راتبك ، وكأنك أنت الوحيد الذي تأكل على هذه الأرض.

– أبدا، الشارع هنا مزدحم ونحن في مصر معتادون على الازدحام، كما أنه آمن، دوريات الشرطة تمرُّ فيه على الدوام، لا أخاف على الأهل عندما يضطرون للخروج بأنفسهم.

– ولَمَ يخرجون بأنفسهم؟

– يضطرون عندما أكون في الدوام ويحتاجون أشياء ضرورية.

- لا تدعهم يخرجون لوحدهم، من تخرج لوحدها امرأة غير محترمه.

تعرف أنهم لا يقصدون ما يقولونه أحيانا، أحيانا تخونهم الألفاظ، ولولا ذلك لرددت عليه ردا خشنا. انظر إلى غيرك من الحاملين، ذهب أحدهم في أجازة عيد رمضان إلى السودان إلى أحد أصدقائه دون سابق كلام ليتزوج للمرة الرابعة ويعود بزوجته بعد أسبوع، ها هو آخر، ضرب زوجته، تركته، لجأت للسفارة، فسافر في أسبوع إجازة نصف السنة إلى المغرب بناء على مشورة أحد الحاملين ليجد عروسا ويتزوجها ويعود بها في خلال هذا الأسبوع، ها هو آخر قد ذهب إلى نفس السوبر ماركت، فرع الأردن هذه المرة، ليعود بزوجة في خلال نفس الأسبوع.. تنظر للخارج، رجل يلقي قطعة ورق على امرأة تسير في الشارع.

- ما ذلك الذي يلقيه؟

- رقم جوّاله.

- لماذا؟

- قد تكون طالبة وتتصل به.

- غريبة.

يوشك ما أحضرته معك من مال على النفاد، ينصحك زملاؤك القدامى بطلب سلفة: "الأمر سهل جدا، ما أن تقدم طلبا حتى تأخذها في اليوم التالي إن لم تأخذها في نفس اليوم"، فتقدم الطلب مستبشرا، يقول لك الوكيل أبشر، تمر عليه في اليوم التالي: "أبشر جمعنا كل الطلبات، مُرَّ في بداية الأسبوع المقبل". وتمرُّ عليه: "أبشر، لا توجد ميزانية، سأعرض الأمر على العميد". تمرُّ عليه بعد أسبوع آخر، ترى الطلبات مازالت أمامه على

المكتب، وقبل أن تفاتحه في الموضوع: "أبشر، العميد مشغول جدا، وسأعرضها عليه عندما يفرغ مما يشغله". لا تبالي باحمرار وجهك خجلا أو غضبا أو سخطا، فكلها أمور تتبين أنها ليست لها قيمة هنا أو هناك. تطمس كل ما يعتريك من مشاعر وأحاسيس متضاربة أو متناغمة، وتذهب بوجه حيادي: "أبشر، لا توجد ميزانية ولم نستطع تدبير المبلغ".... قبل أن يعرج بك السائق على طريق عروة تلاحظ آخرَ يتعقَّبُ بسيارته سيِّدَةً تسير في الشارع وتمسك بيد بنتها بزيها المدرسي.

– هذه سيدة متزوجة.

– ذلك أحسن، المتزوجة غير مكلّفة، إذا كانت تريد لا تطلب شيئا، غير البنت التي تطلب منك أن تشحن لها الجوال أو تحوِّل لها ريالات على الصرّاف.

همس لنفسك "سبحانه"...

– هنا البدو مشكلة.

– لِمَ تفرقون بين البدو والحضر؟

– هذه عادات وطباع لا يغيرها الزمن ولا التعليم، تربى الناس على ذلك.

تتذكر ذلك البدوي الذي اتفقت معه على عشر ريالات، وكان طوال الطريق يقول لو زدتها خمس ريالات لتكون خمسا وعشرين لا بأس، لم تفهم كلامه ساعتها، ظننت أنه يكلم نفسه، لا تتدخل في شئون الآخرين، وعندما وصلت الكلية طالبك بعشرين ريالا، أعطيته إياها رغما عنك، لا تحب أن تتجادل مع أناس لا تتوقع رد فعلهم، كما أن منظرك أمام الطلاب الجالسين في سياراتهم قد يبدو سيئا، لا بأس، تعطيه إياها وأنت تتحسبن فيه، وهل

هذه أولى مرات النصب؟!... تتفادى الكلام في الأمور الشخصية التي تلحُّ أسئلتُه على الدخول فيها، تتظاهر بعدم السماع أحيانا، كأن صوت الهواء الذي يمر سريعا بنافذة السيارة يشوش على أذنيك، أو أنك لا تفهم اللهجة، أو غير ذلك من أساليب المراوغة، عندما يدرك ذلك يتكلم في المطلق، كان ذات مرة خارجا من الحرم، أشار له شابان، نريد مسجد قباء، كانا من الرياض، عندما استقرا في السيارة، قالا:

– لماذا تؤجرون سياراتكم يا أهل المدينة؟ هذا عيب، أنتم لا تستحون من شيء، تعملون كما البنغاليين.

– وهل في العمل عيب؟ انزلا ها هنا.

***

هل انتهيتم؟ امتدت الربع ساعة إلى نصف ساعة في كتابة جملتين، ماذا لو طلبت منهم كتابة فقرة كاملة؟ يستشعرون نبرة التهديد، فيتعهدون بعدم تكرار ذلك، عهود تعرف أن الرمالَ الحارقة خارج مبنى الكلية تتشربها، لكنك لرغبة ضمير تبتسم لنفسك مؤقتا، أظن أنه كان ولدا يعاند عند حافة الرمل، يبتسم لنفسه، يتصل بزوجته للاطمئنان عليها والبنات، يداوي رتوق الجُمَلِ على السبورة، يلفت الانتباه للخطأ وكيفية تصويبه للمرة الألف، يضبط علامات الترقيم والحروف ما صغر منها وما كبر، يتحسبن في زميله الذي باع له سيارة جشعة أتلفت أمواله بلا إصلاح وتربض الآن في الورشة في انتظار الذهاب للتشليح، يتعهد بشراء سيارة أخرى، يرتشف فنجان قهوة كشري آخر ويعود إلى نفس الوجوه في المحاضرة التالية.

كأن بهما إصرارا

ينظر من وراء مكتبه بعينين كأن بهما بلادة، ربما لا يفهم ما يقال، ربما يندهش على طريقته، عليك ألا تسجل ساعة الصلاة ساعة مكتبية، من الثانية عشر إلى الواحدة ساعة صلاة يوميا، أنا موجود هنا، ساعة بين المحاضرات، أليس نصابي التدريسي والمكتبي 25 ساعة؟ لديك يوم ليست به محاضرات في الصباح، لكنني لدي أيام بها محاضرات حتى الثامنة، لابد أن تسجل ساعاتك المكتبية قبل الثانية عشر، طلابي يتواجدون مساء، ساعاتك المكتبية يجب أن تكون صباحا، يحدق، ربما يفكر في أن ينهض ويمسك به، فليذهب الاحترام والتحضُّرُ إلى الجحيم، لكنه جرّب ذلك من قبل وتداعت عليه المساءلات، يمسك بالقلم، يدوّن أشياء، ربما كانت قصيدة، ربما مقطعا من رواياته التي لا تكتمل أبدا، يغمض عينيه للحظات، يستحضر بعض الصور، أو ربما يقرأ بعض آيات القرآن، يضع علامة استفهام في نهاية البيت أو السطر، يلتفت إلى عبد الله بروس على المكتب المجاور، يحاول أن يخرج إلى دردشة لا تنوي شيئا سوى التنفيس، أمي دائما تعرف أنني أسلمت منذ 20 عاما في مصر، مصيبة إن كانت تقرأ تلك الكتب التي تشتريها من محلات ستاند أمام جامعة نيويورك، بها مشاهد جنسية صريحة، محاولة تطبيع للعلاقات بين الجنس الواحد، كما أن بناتي يغضبن عندما أفتح الطرد الذي ترسله جدتهن لهن، لكنك لابد أن تقرأ هذه الروايات أولا، نعم، لابد من الرقابة، عليك أن تتصرف بحكمة، يبتسم دكتور صلاح على المكتب الآخر، تذكر يوم مناقشة أبحاثه للأستاذية، بعد أن أفاض في الرد على أسئلة اللجنة، ماذا أضفت لعلم الرياضيات؟ كتمها في نفسه، ربما ضحكا، ربما ردا عنيفا، ربما سخرية، كظمها، ما علاقتي بعلم الرياضيات أصلا؟ أنا دكتور طرق تدريس لغة إنجليزية وتكنولوجيا المناهج، لا بأس، يبدو أنه عليك أن تكتفي بترسيبك إلى حين... يبدو أن كلامه هنا وهناك أخرجه قليلا، نهض مسرعا قبل أن تقفل الكافيتريا أبوابها قبل الواحدة، يشترى سندوتشين وزجاجة

ماء، يؤخر الشاي إلى ما بعد الصلاة، يصلي ركعتين إمعانا في الاستعاذة من الشيطان الذي قد يفسد عليه كل شيء، يستعيذ من الشيطان ومن الوزير، يستحضر لقاءه بأساتذة الجامعة المصريين في الرياض وجدة، يستعيذ من عجرفته، مطاردته "لعبدة المال"، إصراره على عدم تقدمهم للترقية طالما هم بالخارج، يتذكر برنامج "أبناؤنا في الخارج"، ربما كان بإذاعة البرنامج العام، ربما بصوت العرب، وربما بالشرق الأوسط، ما عادت القنوات الفضائية تترك وقتا للقنوات المحلية، توقف عن مواصلة أبحاثه، ربما لن تجديه شيئا، ربما ينتظر ثلاث أو خمس سنوات بعد عودته حتى يحق له، يتسرب إلى أذنه أثيرُ عدم اشتمال العلاوة الجديدة للمعارين، تجثم على صدره عدم استحقاقه كأجنبي للزيادة في الراتب، يستعيذ بالشيطان من ... يصعد إلى مكتبه، يصب الماء الساخن من الغلاية، يرتشف الشاي سريعا، محاضرة الواحدة تناديه، بعد إذنك يا دكتور، سأذهب للمحاضرة ونلتقي بعد الفاصل، من الذي قام بنشاط منكم في أسبوع اللغة الإنجليزية، نجهّز شهادات تقدير للمشاركين؟ حضرنا، هل شاركتم؟ كنا جالسين، ربما لو كان الباب مفتوحا لخرجتم، يضحك ضحكة مكتومة، يصر القسم على إقامة الفعاليات، الطلاب لا يرغبون أصلا في الحضور، يغلق القسم أبواب المسرح بعد دخول الطلاب في الساعة الثامنة، لا بأس، نعود، قررت إدارة الجامعة أن تكون كل أسئلة الاختبارات أسئلة موضوعية، لم نتدرب عليها، لا تقلقوا، سأعد المنهج بأكمله على شكل أسئلة موضوعية في نهاية الأسبوع، سيكون عندكم اختبار في نهاية الأسبوع المقبل، ربما تعوِّضون درجات الاختبار النصفي، اتقوا الله في أنفسكم، كنت أتوقع ألا يحصل طالب علىَ أقل من جيد جدا، الأسئلة ناقشناها كلها وإجاباتها في المحاضرات، ربما تعوِّضون، من لن ينجح في الاختبار ربما لن ينجح في النهائي، عليك أن تسجل ساعاتك المكتبية قبل الثانية عشر، يتجهم، سرعان ما تعود ابتسامة خفية، بنتاه تقفان تحت الدش، تضعان الشمسية فوق رأسيهما، المطر يسقط على الشمسية، يضحك، يعود إلى مكتبه، ينظر من وراء مكتبه بعينين كأن بهما إصرارا...

منظور

لليوم الثالث، لا على التوالي، لا على التوازي، تجلس أمامهم، تمسك قلما مختلفا، علّك تتأثر بتغيير الخط أو اللون، تنساب إليك كلماتك، يفترض أن تجسّد قصة، يفترض أن تقول شيئا، دائما "يفترضون" أن تكون "فيك" أشياء، فلماذا تكتب إذن؟ لا شيء، لا شيء ماذا؟ لا أعرف بالضبط ما الذي يحدث، عُدْ إلى قلمك القديم، ألا تراه الآن يسرع الخطى على السطر لكي يكمل معك ما تريد؟ لا تبتئس يا صديقي، كل ما هنالك أنك مرهق قليلا، أو حتى كثيرا، لا يريد عقلك أن يعمل بكامل قواه، يريد النوم، بالرغم من أنك نِمْتَ كثيرا الليلة الماضية، من قال لك إنني نمتُ أصلا؟ مواجهات حضارية غبية يا أخي، يقولون إن العالم صار قرية صغيرة، يتحدثون كثيرا عن الوحدة.... ألا ترى الفواصل التي لا يمكن تجاوزها؟ وإن تجاوزها طرف لا يتجاوزها الطرف الآخر، ألا يتوحد المرء مع ذاته أولا حتى يمكنه التوحد مع الآخرين فيما بعد؟ ألا ينصهر في نصفه الآخر حتى ينصهر في البوتقة الأكبر بعدها؟، أنصاف، أنصاف، الدنيا كلها أنصاف يا عم منير، إنه الاختلاف يا سيدي، الاختلاف سيد الموقف، مهما ازدادت نقاط التشابه فلن تمثل إلا نسبة ضئيلة من مجموع الاختلافات، كيف يأتيني النوم أصلا؟ يقولون إن التقاءكما أول نقطة لامتزاجكما فيما بعد، لكنك التقيت وما من امتزاج، إذا تنازلت أنت سيحاول نصفك المفترضُ أن يحصل على المزيد من المكاسب، يبدو أن بعض الأعمال الأدبية التي تصور الصراع، لا الحوار، أكثر مصداقية، من ذلك الطيب الذي يتصور أن القرية يمكن أن تصير مدينة أو المدينة قرية؟ غباء، يقولون أنت مقبل على حياة جديدة، فليكن، ما الذي ينقصك لاستيعاب هذه الحياة الجديدة؟ لا شيء سوى تحويل وجهة منظورك قليلا كي تتأقلم، تستوعب شخصا آخر في حياتك، تتمثل بلدا مختلفا في قلبك، تجربة جديدة وعليك أن تستفيد منها لتطوير شخصيتك، ألهذا صرتَ مشرفا على لجنة التدريب والتطوير؟ تجربة جديدة وعليك أن تكون فاعلا فيها، لابد أن تكفَّ عن العصبية، لا يوجد ما يربطكما

حقا، والعصبية قد تؤدي إلى مضاعفات، أتخشى العواقب؟ فليكن، الهدوء، كانت دراستك للمنظور جَدَّ مفيدة، فلتتعلم الدرس إذن، ألم تكن الرؤية الحضارية للإبداع أكثر إفادة؟ معضلتك أنك تتطور على الدوام؟ لكن السكون يواجهك مخرجا لك لسانه، لا يستوعبك السكون، يصر على قناعاته الشخصية، ينبهر بنفسه لدرجة الاستفزاز، لكن يبدو أن النظرية تتفوق كثيرا على التطبيق، تخلصت من عصبيتك تماما، أصبحت الآن إنسانا داجنا، لا بأس، كلنا من الفصيلة الحيوانية في النهاية ومادام ذلك شيئا متبادلا لا بأس أيضا، مادام كل منكما سيفعل نفس الشيء حتى تفسحا مجالا للتلاقي، منطقة وسطى مشتركة يمكنكما التحرك فيها، ولكنك بعد أن يبلغ تدجينك مداه تكتشف أن أحدا لا يتزحزح قيد أنملة عن موقعه، بل يحاول أن يستقطع منك امتيازات جديدة... ما علاقة هذا بما سبق أو بما سيأتي؟

تعتصر ذهنك الأسئلة، وتُسَاءلُ ما تكتبه، أين يمكن تحديد البؤرة؟، تظن أن ذلك موضوعك الأساسي، مجرد ظَنٍّ قد يُوَفَّقُ أو يخيبُ، ربما راوغتَ كثيرا حتى تصل إليه، إلى ماذا بالضبط؟ يبدو أن عبارتك ذاتها مراوغة كبرى، ربما كان هناك رابط وثيق بين الكل، ربما كان في ملامح هؤلاء الذين يتشبثون بالغباء أمامك الآن علاقة بملامحها، من هي؟ ما هي؟ لا تظن السوء يا ابن آدم، مجرد تقاسم للسمات الشخصية وإن كان على محاور مختلفة، تجلس في تلك القاعة تنتظر، ما من أحد يدق الباب، وكأنهم عزفوا عن الحضور، حلوة "عزفوا" هذه، تفتح ذلك الباب، علَّكَ ترى أحدا فتنادي عليه، لا يظهر أي شخص في الطرقة، قلةٌ يتناثرون هنا وهناك في القاعات وكأنهم حبات رمال ضاعت أدراج الفصل، تضع يدك على رأسك، تحاول أن تجمّع شتات ذهنك الحار، ما من مبرر، لا تستطيع التوصُّلَ لشيء، أهي عاداتهم هنا؟ لا شيء يهم، لا يوجد مجال لأي انبهار، وهل تصر أنت على تحميل كلامي بما لا أقول؟ ما معنى الانبهار أصلا؟ ألم تجرِّب رائحة الصبّار وتصنع سياقات مختلفة؟ ومتى قلتَ شيئا أنت أصلا؟ فقط تضمرُ على طول الخط، وعليّ أنا وغيري أن نجمع الشتات من بين السطور، من بين القصص، لكنك وقفت، تنظر شاخصا أمام السبورة، تحملق في أبجديتها السوداء، تحاول أن تتهجى

حروفا تعسر على لسانك، تتأرجح حروفك ما بين المد والجزر، وكأن لسانك انقلب عشبا تتناقله المياه كيفما شاءت، لا يخطر ببالك أبدا أن ذلك مجرد احتمال، مجرد وهنٍ طاوع قلبك يوما، أو قلبك هو الذي طاوعه فانصاع له، دون أن تساءِل نفسك، دون أن تضغط على ذلك الزِّرِّ الذي في رأسك، للفتح أم للإغلاق؟ يبدو أنه صدئ أو غطَّتْهُ كثبانُ الرمال، لابد لك من موقف، بدأتْ رأسُك "تفصل"، تكتب جملة، تنفصل أسلاك رأسك لثوان، أو ربما لأجزاء معدودة من ثانية أحمد زويل، ثم تنظر إليها، أإلى السبورة أم الجملة أم إليها هي؟ ترى أنها تشتمل على كلمات لم تدرجها بنفسك فيها، كأن لاوعيك هو الذي يتحكم فيك، ولماذا "كأن"؟ لكنك سرعان ما تنسى ذلك، أو سرعان ما تغيب الجملة عن ناظريك، فتعود إلى "الفصل" مرة أخرى، أهو القاعة الدراسية أم فصل رأسك أم انفصال أسلاكك أم فصل الصراع أم فصل العامية عن الفصحى؟ تتذكر أنك بصدد الكتابة، تتذكر أنك كنت قد بدأت في كتابة قصة، لكن ماذا؟ هل تريد أن تقول إنه فقط انسياب أفكارك بعدما جئتَ إلى هذه الأرض، أي أرض بالضبط؟ أهي أرضنا جميعا أم تراها أرض خاصة؟ كان فعل ماضي، بسيطة، لا ترى أن هناك مشكلة، هل ستخسر شيئا إذا كتبتَ الأفعال في الماضي؟ عما تتكلم بالضبط؟ يبدو أنك أوشكت على النوم فعلا، لا تستطيع حتى أن تفتح عينيك، اكتبْ الكلمات الدالة بلون مختلف، أو حتى نشِّطْ الكلمات بوصلات تُحيلُ إلى وصلات أو قصصٍ أخرى في هذه المجموعة أو مجموعات أخرى حتى يمكَن تتبع طريقها وعلاقاتها، قصصك كلها لاوعي واحد، لِمَ ترهقنا هكذا؟ لقد سبقك كثيرون إلى النشر الإلكتروني، الأدب التفاعلي يا أخي، تصور أنك غبي! أيوجد تفاعل أكثر من هذا؟ أهذا السؤال على لسانك أم على لساني؟ المهم، كانت أصواتها، لا تقول البهائمية كي لا تظلمها، أصواتها الزاعقة الصارخة التي اندفعت من الشبابيك وامتدت إلى كل أرجاء الشارع، كانت هستيرية جدا، وكأن عفريتا ركبها، أو أنها هاجمها أو تكشف من داخلها مرض شعبي، كانت قد غضبت منك من قبل لأنك كنت قد ألحت ذات مرة إلى ضرورة ذهابها إلى طبيب نفسي أو أحد الشيوخ، كان مجرد تلميح، لا تعرف كيف يصرُّ المرء على تجاهل ما

يلمٌّ به ويعتبر مجرد فتح هذا الموضوع خطأً لا يغتفر، أأنا مجنونة؟ أأنا حبيبتك راكبها عفريت؟ كيف تقول ذلك أمام أخي؟ دوى صراخ البنت الكبرى في مؤخرة الليل من جرَّاء الضربات الهستيرية التي ألقتها عليها دون سابق إنذار، ربما كنتَ أيها الطفلُ ترى شيئا عاديا في أن تكسر شيئا أو تبعثر الأشياء، ربما كان منظورك يجعلك تراها غير منظمة أصلا ولذا بعثرهًا/ نظمتها، لكن الهستيرية لا تجعله عاديا، تنهال عليك الضربات واللكمات... وكأن أشياء جمة لا تغتفر قد ارتكبتها... يفترض أنكما في غربة، لا تتخذ إجراء الآن، لا تفعل شيئا إيجابيا، أتقول إيجابيا؟ فقط انتظر إلى حين حلول إجازة الصيف، ساعتها يمكن أن تتصرف على رسلك، ليس الآن، تضع يدك على كتف ابنتك كي تهدئ من نشيجها وتمسح باليد الأخرى دموعا متناثرة تسقط على خدها من حين لآخر، بصراحة أشعر بأنك تتصنع الكتابة، كأن قصتك لم تتشكل في مخيلتك بعد، لم تتضح الصورُ في رأسك، تحاول أن تتكلم في المطلق والعموميات بعيدا عن أية تفاصيل قد تصلك في ذلك اليوم المنفتح على الطريق المؤدي إلى ما لا يحس بما قد يصل إليه من انشراح كاذب نتيجة لنقد، لنصل، لتقدم، نشر، انتهاك، سراب، متخيل، على من؟ وهل هذه جملة قصصية تتداخل بها معي أصلا؟ لا أدري، "بصراحة وبكل صراحة ملقيتش في حبك راحة"12، وتعود إلى مقارنتك القديمة! تحاول أن تجمع شتات الصورة التي أوشكت أن تنمحي من ذاكرتك، تستجمع بعض الملامح، لكن الكثير منها يراوغك، يفلت من ذاكرتك، وكأنك لن تنجح أبدا في كتابة نصك الأكبر الذي تحاول فيه أن تعصر ذاكرتك القصصية لتقبض على ما/من يحاول الانفلات منها... من أدراك؟ ربما كن كلهن مثل بعضهن، ألم تنْزل إلى الأرض ناقصا؟ ألم تترك جزءا كبيرا هناك في العلا؟ فقط الاختلاف في بعض العلامات الخارجية للإطار، بعد ذلك لن تجد سوى القاسم المشترك، آه لو كانت المسودة التي تركتها في مكتبتك هناك قبل سفرك معك الآن! تعود إلى ذاكرتك وتتمزق الصورة بين يديك، أتذكر؟ ساعة أن جاء زميلك الذي لا يُكِنُّ لك إلا

12 من أغنية لفايزة أحمد.

كل حقد، لكنك لك عذرك، لم تكن تدرك ذلك ساعتها، قال إنها قالت... عنك، فمزّقتَ صورها التي كان صديقك الآخر قد "سرقها" لك من دفتر الاستعارة بالمكتبة بعد أن رحلت عن تلك الكلية، مجاز مرسل، سحر أسود، لكن اكتشافك جاء بعد فوات الأوان، ضاع منك الدليل المادي الوحيد الذي يثبت وجودها أصلا، وربما لم تكن موجودة إلا في رأسك! ماعدا ذلك مجرد فتات في الذاكرة، لقطات أبيض وأسود وكأنها صورة بكاميرا ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر، لقطات كأنها الوهم أو الحلم أو صور تتراءى لك في الوقت الذي تفتح فيه عينيك من سترة الإجهاد وعدم النوم في الفصل وعليك أن تصحو لتكمل المحاضرة، لحظات قليلة تبين فيها ملامحُ بالكاد تراها ثم تختفي فجأة من حيث تسرَّبتْ وكأنها ومضاتُ وهمٍ سرابي يتراءى أمامك... كلما نظرت إلى هذه الوجوه أحسستَ بأن هناك مشكلة، كأن هناك خطأ، أو ... تحس بأن تلك الغلالة شبه المعتمة التي تعتصر رأسك ستدوم قليلا أو كثيرا، على الأقل إلى حين الانتهاء من هذه القصة اللعينة! تذكّرك بجان كوكتو وآلته الجهنمية بدلا من أن تذكّرك بجيمس جويس أو محمود عوض عبد العال، الخيوط تتشعب، ها هي تتخذ هوية أخرى، ما هي القصة أصلا؟ حتى مفهوم السرد تنكّر وتحوّل إلى فعل فيه من الغناء والحوار والتأمل والتساؤل وانسياب الخيوط والتدفق الكثير... تبحث عن جملة أخرى تداوي بها ذلك الرتق الذي يلم بالنص، ربما جمل، وربما لم تكن الكلمة المطلوبة هي الرتق، بل الفجوة... سيكشف البحث عن أشياء مثمرة، وربما مثيرة، البحث، لا تتوقف، "وحدي قاعدة في البيت"13، أهلا عفاف، لا تدري لماذا تتذكر هذه الأغنية بالذات وأنت في قاعة المحاضرات، تحس بأن كل المدارس الأدبية تحاول التجسد عندك، وأنت الآن في حلٍ من كل منها، وضعتَ إصبع قلمك على طريق ما يحاول الارتسام أمامك، أنت تحاول، وهو يحاول، ومحاولاتكما ستصل بكما إلى نقطة ما، لا بأس مادام الكون كله سيتكاتف على تحقيق أسطورتك الذاتية14 إذا

13 من أغنية لعفاف راضي.

14 الأسطورة الذاتية مفهوم رسمه باولو كويليو في روايته السيميائي أو ساحر الصحراء كما ترجمها أستاذنا المبدع بهاء طاهر.

كنت مصمما عليها بطريقة لا تسمح لك بأن تلين أو تتخاذل، لا بأس، كلها متاهاتٌ بكرُ، وأنت هنا وهناك تكتب، تحاول أن تسد بعض الفجوات التي تراها في بعض الخيوط الموصلة إلى نسيج النص، لا "تسد"!! من قال إن هناك فجوة أصلا، أليس من المحتمل أن الغشاوة التي على بصرك كَثُفَت، وما عاد بصرك ألومونيوم أو نحاس أو حتى خشب، وبالتالي لا ترى جيدا؟ أليس من المحتمل أن تكون هذه الفتحة/الفجوة سابقا ممتلئة بنسيج ما، لكنه شفاف جدا بدرجة تجعلك لا تلاحظه؟ ربما كان غشاء بكارة، وربما كان سده تمزيقا له، نعم، تحاول أن تسلط الضوء على بعض الفتحات التي تشغى في نسيج النص، لتتبين ما تنفتح هذه الفتحات عليه، على ما تصل النص به... تتأمل في هذه الفتحة، تبصر قصائد، تبصر خيوطا "تندهك"... تعشق رائحة المطر، لكنك تخشى أن تتساقط الأمطار عليك وأنت في طريقك إلى عملك .تنفعل كثيرا، لكنك، إذا قررت التحكم في أعصابك، تجدك شديد البرود... عقلك مثقل بالعواطف، قلبك تراوده الأفكار عن نفسه، وما بين الاثنين، خيط كبير يوشك أن ينقطع... حبات التراب تلهث، تتهلل عندما تغيم السماء، تبتسم للنسيم المواتي، تومئ بعينيها لأجنة حبات المطر، تشرق لها في دلال، فتتهاوى عليها الحبات في لهفة... وورقة شجر، تترنم كل يوم بأنشودة الصباح، ترفع طرفها للسماء، تشكر الخالق الحنون، ثم تنظر لك في رضا، كأنها تؤكد لك ما بينك وبينها، تقبِّل جذعها الريان، وتسكب كوب ماء على أوراقها، تغتسلان سويا، أوراق أنت تركتها تجف، لم تلتفت لها، لم تصغِ لنسيم حياة يسري فيها كنهر كان هنا منذ الأزل، لكنك صَمَمْتَ قلبك، غلَّفْتَ نفسك بعازل يجافي النشوة والتوهج، ارجع إلى دمك، اطلب منه العفو، علَّ أوراقك تعود إليك ويلدُ ماؤك مياها... يدق جرس "الفسحة"، ههههههههه، حلوة "الفسحة" هذه، تنتفض الرأس، تنظر في ساعتها وتنصرف إلى قاعة أخرى.

أبـخرة

ما بال هذا الصداع يناوش الرأس ويثقل الجفون، مع أن اليوم يوم أجازة وكانت اللغة فيه تتبرزخ، دَوِيٌّ في رأسي، دَوِيٌّ في رأسك، يبذر علامات استفهام، حول نفسك، حول غيرك، حول ما تفعله أصلا، صداعٌ يُلِمُّ بك، واقف أنت هناك، جالس أنت هنا، أهو ذلك الكمبيوتر اللعين يتآمر عليك فيثقل رأسك؟ يقول لك إن الذاكرة مشغولة للغاية، لا يمكن تنفيذ أي أمر الآن، كفَّ مخك عن الاستجابة، تحاول إعادة تشغيله، وما هو بمستجيب، لا تستطيع أن تحيط بما يحدث سببا، تحاول أن تبصر شيئا، تحاول أن تصل إلى ما لم يبصروا به، غلالة معتمة تجثم على عينيك، تتراءى لك صورٌ باهتةٌ، تبزغ من خلف الغمامة ثم تتلاشى، كل مرة تحاول الإمساك بها لا تقبض عيناك على شيء، أهو ميلاد جديد؟ أتُراك في أيامك الأولى قبل أن

تنشط ذاكرتك البصرية، أم تُراها من ولدتك جمَّدت نموك، فصرت محصورا في تلك الخانة التي لا تؤدي إلى شيء؟ حتى في ذلك الطور كان من المفترض أن تعيش في طور لَذَّتكَ، لا يُهِمُّك شيءٌ عن العالم، لكنك لا تستلذُّ بشيء، ولا تستطيع صَرْفَ ذهنك عما يدور، تحاول أن تُخْرِجَ "فيشتك" من مكمنها حتى ينقطع تيارك للحظات تستطيع بعدها أن تبدأ من جديد وتتغاضى عن رسالة الإغلاق الخطأ، لكن محاولتك لا توصلك إلى شيء، تنظر واجما إلى شاشة ذاكرتك، تراها لا تعرض سوى رسالةٍ واحدةٍ لا تتغير، "خطأ في النظام"، ما مدى مسئوليتك عن النظام؟ سؤال تطرحه ثم تحاول النهوض من أمام الكمبيوتر، ولكن... تصلك رسالة على بريدك الإلكتروني: "لقد سجَّلْنَاكَ في النظام ولا يَحِقُّ لك حذفُ اسمك لأنك بدخولك على النظام وافقتَ ضمنيا على القوانين التي تحكمه". تحطم شاشتك، لكن الرسالة لا تختفي، تتراءى لك في كل ركن من عالمك الصغير... لا تملك إلا أن تعيد تشغيل الجهاز، أي جهاز بالضبط يا صديق؟ امض الآن، جهّز لنفسك كوبا من النسكافيه، اشرب النسكافيه على مهل مغمضا عينيك حتى تحتفظ بمناشطه في خلايا مخك، ودع أبخرتك تتصاعد...

استرداد

قال "أنا على استعداد لأن أذهب معكم". ربما كانت نبرته تقول إنكم لن يسمع لكم أحدٌ صوتا أو يُنظر لطلبكم بصدر رحب. ربما كان يقصد استهزاء، أو تهكما، وربما كان حَسَنَ النية، جادًّا بالرغم من جواز سفره. أخذتَ كلامه على محمله الحرفي. ابتسمتَ في وجهه تلك الابتسام التي تتعمد أن تكسب بها صدقةً من وجه أخيك، وشكرتَه بحرارة. انصرفتَ مستجمعا قدرا من دمك المحروق. لابد أن تكتب طلبا. تذكرتَ مسلسل الأطفال "الفسحة" الذي يشاهده أطفالك: "أعمل تحتك ثلاث سنوات ولم تمنحني اسما، في حين أنه جاء منذ ثلاثة أيام ونال اسما ولم يعد نكرة". "ولِمَ لم تعترض؟"... تُسْرِعُ إلى زملائك العرب والهنود. الموضوع: طلب مساواة في الراتب. لابد أن نختمه بفقرة تدل على الاستعطاف وأن ذلك تَكَرُّمٌ منه. لا بأس إلى حين. تكتبه على جهاز الكمبيوتر. تعرضه على زملائك. يراجعه كل منهم. تحذفون كل عبارة أو كلمة مستفِزَّة. لابد أن يكون حياديا بأكبر

قدر ممكن مع تكرار كلمة "معاليكم". توجِّهُونه إلى مدير الجامعة. لكنكم تتركون مساحة أسفله لتوقيع رئيس القسم والعميد. تتوجهون به إلى أولهما. يحدِّقُ في الطلب. يقرأه عشرات المرات. ينظر إليكم من وراء نظارته متشككا. يأمركم أن تتركوه ليدرسه على مهل. يطلبكم في اليوم التالي. يبلّغكم أنه لن يوقع على الطلب. لا يُبدي سببا. تتجهون إلى وكيل الكلية. زاد راتب زملائنا الأجانب 100% ونحن ندرّس مثلهم باللغة الإنجليزية في نفس القسم. تقولون "الأجانب" عامدين، بالرغم من أنكم يُطْلَقُ عليكم "الأجانب" أيضا. ربما تحاولون أن تستعطفوه أو تثبتوا له أنكم مثله وهل يرضى أن يهدر أحدٌ حقَّه؟ تجدونه مبتسما: مادامت الجامعة وافقت لهم فستوافق لكم بإذن الله. يلفت انتباهكم إلى الطريقة الصحيحة لتوجيه الخطاب. لابد أن توجهوه للعميد وهو يرفعه بمذكرة لمدير الجامعة أو الجهة المختصة. تنتظرون الحصول على إفادات تجديد العقود للسنة القادمة. تعيدون صياغته. توقّع عليه. تدور على قاعات الامتحانات لتجمع توقيعات الموجودين من زملائك. تنتظر الغد لإكمال التوقيعات. تبتسم. تقرر رفعه إذا رفض العميد. تتراءى شاشة مسلسل "الفسحة" في كل مكان أمامك وأنت تُسرع لاستلام أوراق الأسئلة واللحاق بفترة الاختبارات الثالثة.

وحدك في فلك نور

أفكار تستدرجك إلى زخم الحياة وتسخر، ثم تردُّك إلى سكونك، إلى صحرائك، إلى تصحُّرك، إلى بيدائك، إلى حركتك المتواصلة التي لا تجد فيها وقتا لتتعرف على الوجوه، على الحياة، أفكار تمنِّيك بالسكون ولو للحظات، سكون غير سكونك، جمود غير جمودك، فالأشجار التي تزرعها على قارعة الطرق أهي معالم لتستضيء بها، أنت أم هم؟ ولِمَ لا تعاود النظر إلى ما فات؟ لِمَ لا تتقهقر لبعض الوقت كي تلملم ملامحَ كنت تألفها، وكانت تألفك؟ تلملمها إن شئتَ أو حتى تزرعها معالم على طريق تحنّ أنت إليه، بين الحين والحين تحنّ؛ لِمَ لا تتراجع؟ تفر من صحرائك الخضراء إلى ما كان صحراء راملة، صحراء رملية تبتسم فيها لنبتات صغيرة وسط الرمال، تحاول أن تلفت الانتباه إلى خضرتها البادية، خضرتها الرضيعة التي تقول ها أنا هنا، أنبتُ في الصحراء، ها أنا هنا أصنع المعجزات، وأُخرِج من تلك الرمال، من ذلك الجفاف، حياةً، لِمَ لا تخرج من فلكك الذي تدور فيه؟ أنت الدائر والدائرة، أنت المحور والفلك، تدور حول نفسك، أو تدور نفسك حولك، لِمَ لا تخرج لتعانق الأفلاك؟ لِمَ لا تخرج لتلتحم بالظلام بين الفضاءات؟ لِمَ لا تترك معالمك التي زرعتها على قارعة الطرق مرشدا، وتسترد جذورك في تلك النبتات الصحراوية التي كنت تبتسم لها وأنت تنتقل عبر ذلك الطريق الصحراوي؟ شرقيا كان أم غربيا، تبتسم لهذي النبتات، أو تبتسم هي لك، كنت تراها حياة، وكانت تراك حياة، لكن خطواتك أخذتك بعيدا إلى طُرُق، لكن عجلات رأسك ألقت بك في البحور، نقلتك بين المقامات، بين بحورٍ الذهن، بين الحالات، وما لك حالة ترتضيك، ما لك أن ترتضي حالة، وتظل هكذا متنقلا حائرا لا تعرف كيف تتوقف، لا تعرف كيف تسكن، لا تعرف سوى شيءٍ واحدٍ، الحركة ثم

الحركة ثم الحركة، الصعود ثم الصعود ثم الصعود، ولكنك وحيد في الأفق، أنت وحيد في الأفق، تَراكَ عاليا، تَراكَ ناهضا، تَراكَ متقدما، لكنك وحدك، حتى الأفلاك الصغيرة في بيتك أنت بعيد عنها، الأفلاك الصغيرة من حولك، الأفلاك التي ربما أنت الذي تراها صغيرة، وربما لا تراك هي في مجالها، ربما لا تراك في أفقها، فصعودك أبعدك خارج نطاق الجاذبية، أنت هناك، لا لك أن يجذبك أحد، لا لك أن تنجذب إلى أحد، فارقت الجاذبية، فارقت الانبهار، فارقت الدهشة، كل شيء عادي في نظرك، كل شيء عادي يا فتى، وأنت الذي كنت تمل الاعتياد صرتَ عاديا في نظرك، لا لك أن تفرح، فالفرح لا يدعو للفرح؛ لا لك أن تحزن، لا شيء يدعو للحزن؛ لا لك أن تتألم، لا شيء يدعو للألم، الألم عادي، الفرح عادي، الحزن عادي، الجنس عادي، حتى تطلعاتك عادية، ما معنى أن تنشر أبحاثا؟ تنشر قصصا؟ تنشر أشعارا؟ تنشر نقدا؟ نشر على نشر على نشر، من ذا الذي يقرأ في هذي البلاد؟ هل يُعقَلُ أن تنفق كل أموال غربتك على نشر كتبك؟ وما المردود؟ ما الذي سيحدث؟ لن يتغير شيء؟ سيظل الجميع كما هم؟ تفكيرهم كما هو؟ بلدك كما هي؟ كرامتك مفقودة في الداخل والخارج كما هي؟ وما الذي سيفيدك لو كسبت كل الناشرين، وخسرت أنت الذي تبحث عنه؟ ناشرون كأنهم الخراب، كأنهم مشجّعو منتخب كرة قدم لشعب بربري، يهدمونك ليبنوا من أموالك بيوتا، أو لا يبنوا شيئا، فلا أحد يقرأ، لا أحد سيتغير، ماذا لو كسبت الكل وخسرتَكَ؟ خسرت "أنت" الذي كنت تعتز به؟ أين جموحك؟ أين تهورك؟ أين طيشك؟ أين تعصبك؟ أين حزنك؟ أين فرحك؟ أين انفعالك؟ أين عنفك؟ أين جرأتك؟ لا تتجرأ إلا على الأفكار، لا تتجرأ إلا على الحروف، تطوّعها لهواك كيفما شئت، تتجبر عليها وتقودها كتابة وترجمة، تسخّرها ، ها أنت تستخدم معرفتك في الاستعباد، تسخّر وعيك للاستعباد، تستعبد الكلمات، تستعبد الحروف، تستعبد اللغة ذاتها، ربما

تستعبد نفسك، مادمت أنت تستعبد كل شيء هكذا، هل فكرت في أنك ربما كنت تستعبد الأشخاص، ربما كنت تُشَيِّيءُ الأشخاصَ حولك، ولا تراهم "شيئا"، لا تراهم ذاتا، ألم تكن وسطا؟ بك غباء؟ بك ذكاء؟ بك ظلام؟ بك نور؟ لِمَ تركت الظلام؟ تركت الغباء؟ للأبد تركتهما، ومشيت على طريق النور، لا ترى سوى النور مرشدا، لا ترى سوى النور إماما، وها أنت لا تجد مصلين، أنت تَوْأَمُ نفسك، أو نفسك تَوْأَمُكَ، وهل كانت غير أمَّارة بالسوء؟ وحدك على طريق النور، وحدك النور، ماذا يجديك النور وأنت وحدك على ذلك الدرب الشاسع الذي لا حدود له؟ أنت وحدك على درب لا حدود له، فقط درجات لابد أن تصعدها، لا لك أن تنْزل، لا لك أن تتراجع، ويا حسرتا على درب كان بإمكانك أن تتقهقر! يا ويلتا على درب يدفعك دائما للأمام على طريق النور! تجرَّعْ وحدتك، تجرَّعْ موتك، تجرَّعْ نورك الذي لا يكشف سوى عن ظلام تحنُّ إليه، لا يكشف إلا عن ظلام يحنُّ إليك، كل الظلمات منتشية، كل الظلمات تنتشي بدورانها حول بعضها، وأنت تدور حول نفسك، أنت تدور حول النور، فلينفعك نورك! ومن قال إني ها هنا أرتجي النور؟ أنا أسيرُ دربِه، لا فكاك لي منه، لا فكاك له مني، لا لي أن أخرج عليه، ولا له أن يخرج مني، كما أنني أنا الذي أستعبده داخلي، أنا الذي أتجرع سكرات النور وحدي، أنا فديتكم جميعا بالنور، أنا الذي فديتكم جميعا، وتجرَّعتُ النور وحدي، دون أن أطلقه عليكم، سيفسد عليكم بهجة تنعمون بها، أنا الذي بإمكاني أن أطلقه عليكم، ويا ويلكم لو انطلق، يا ويلكم لو هجم النور عليكم، لن تبصروا بهجة في أي شيء، سيكون كل شيء عاديا، عاديا لحد الشطط، وساعتها بإمكاني أن أرديكم مثلي نورانيين، لا لكم أن تبتهجوا، لا لكم أن تحزنوا، ساعتها أرديكم مثلي، ولتهنئوا بنور تتطلعون إليه.

خطيئة النور

إلى متى؟ إلى متى يحتل النور قلبي؟ لا يترك فيه رقعة لأحد، ينشر جنوده في البراري، ينشر إخوانه في أفق البصيرة؟ إلى متى تحتلين بنورك قلبي؟ إلى متى تحتليني ببهائك، بنورانيتك، بشفافيتك، بسماويتك؟ إلى متى لا أنت هنا، لا أنت هناك، لا أنت في كل مكان؟ لا أنت في أي مكان، لكنك تحتلين العقل والقلب والبصيرة، لا تتركين لي فرصة للتدبر، فرصة للحم والدم، ألتهمه أو يلتهمني، أمتصه أو يمتصني، نلتحم سويا، لا تتركين لي فرصة، لا تتركين مجالا لمقاومي النور، مجالا لتحَقّقِ وعيي بزيفك، أعرف أنك لا شيء، لا هنا، لا هناك، نور همّ بي ذات صباح أو ذات مساء، فارتسمتِ في الأفق، في أفق الروح، في أفق القلب، في أفق الرؤى، ارتسمتِ ونشرتِ جنودَك في كل الأرجاء، لا تسمحين لأحد بالدخول، لا تعترفين بجوازات السفر، أدرك أنك وهم، وأقوّي إدراكي، علّي أبصر ما في اللحم والدم من مباهج، علّي أغتصب مكانا لأحد غيرك، يهنأ بي، أهنأ به، لكنك لا تعرفين سوى نفسك، لا تعرفين سوى النور وكفى، لا تعترفين بحق أحد في اللجوء إلى قلبك، لا تعترفين بحق الإقامة، ولا حتى بحق الانتساب، لا تعترفين لأحد بشيء، وتكتفين بذاتك متربعة على كل النواصي، متربعة على قلوب راودها حلم ذات يوم، راودها حلم بالالتحام، بالتوحد، بالحميمية، لا، لم يراودها الحلم، كلمات هنا وهناك، في بطون الكتب، ربما كنتِ أنت التي نثرتها هنا وهناك، تصطادين بها الأغراء، تصطادين بها الجهلاء، تصطادين بها الحالمين، تصطادين بها السذج أمثالي، كي تنصبي شباكك حولي، وأهيم بك، أتحلق حول مقامك، أتحلق حول مقام لا أراه، مقام ربما أحس به، ربما أتخيله، ربما أتوهمه، لكنني لم ألمسة يوما، لن ألمسه يوما، فقط أتحلق، أمارس طقوس شعيرة يومية، لا تدع مناسكها وقتا لشعائر أخرى، وقتا لأحد آخر، وأظل أنا هكذا أحلم بالبوار، أحلم بالصحراء، أحلم بالطين، أحلم بالظلام، ولكن نوركِ يعمي البصيرة، لا نبتات تبين في الأفق، مع أن الأفق مليء بكل النبتات، وكل الأشجار، مليء بكل شيء سواك، وكأن نوركِ يلف حولها غشاء يدثرها، فيعميني ولا أبصر شيئا، من

أنت؟ من أنا؟ يقولون تفاحة؟ يقولون جسدا حميما، يقولون معرفة، يقولون وعيا، يقولَون إحساسا بالزمن، يقولون، ماذا يقولون؟ وأنا ما عدت أفقه سوى نور لك، ما عدت أفقه سوى نورانيتك، فقدتُ أبجدية الظلام، ضيعتُ أبجدية الجسد، ضيعتُ حروف التفاهة، فلا أنا أتواصل، لا أُحسُّ بلغة أحد، لا يُسْعدُني أحد، لا أُسْعدُ أحدا، من أنت؟ من أنا؟ من ذلك المن؟ أنا لا هنا، ولا معك، أنت لا هنا، وربما لا هناك، حتى لَو أنك هناك، أنا هنا، أنا هناك، ومالي بهناكك؟ يقولَون، لا، لا أحد يقول شيئا، عندما أَقرأ التاريخ، لا احتلال يدوم، أنت تحتلين قلبي، تحتلين القلب، أو أنا الذي توهمتك وزرعتك فيه، أنا الذي توهمتك، أنا الذي زرعتك، أنا الذي غرستك، أنا الذي ضربت بجذورك في أعماقي، ما عدتُ، وما أنا بقادر على أن أحيي القَلب، ما أنا بقادر على أن أحيي الموتى، الموتى الذين لا يحسون بالأحياء حولهم، الموتى الذين وهبوكِ حياة وحيدة كانت لهم، الموتى الذي فضَّلوكِ على أنفسهم، وصنعوا من وهمك حياة، وأماتوا أنفسهم، لكنهم ليسوا بشهداء، فما هم إلا إرهابيون، ما أنا إلاَ إرهابي اجتثت حياتي لكي أهبكِ إياها، لكي أصنعكِ على عيني، في الأحلام، في الخيالات، في الرؤى، على امتداد البصيرة، أزرعك، أرشقك في الخلايا، أرشقك في الأوردة، أسكبك في الأوردة، فتحتلين كل الخَلايا، أو أَنك طمعتُ عندما أَسكنتك قلبي، فبدأت في التوسع، فراودتك نزعة الاستعمار، راودكِ حبَ التملك، واستحوذت على كَل شيء، حتى عيني ما عدتُ أرى بها، ما عدتُ أرى بها البشر الطيبين حولَي، ما عدتُ أحس بدردشتهم، بكلامهم، بكلامهم المنساب بعفوية، وربما لسد الفراغ، ربما للتواصل، ربما كان الكلام هدفا في حد ذاته...

لكنَكَ لا تعرفَ الهدف الذي في حد ذاته، تعرف أن لكل شيء غاية، ولكل غاية غاية أكبر منها، وهكذا، أعرفُ، أو أنكَ تصر أن تعرف، أو أنك تصر أن ترى الأمر هكذا، ما أنتَ إلا وهمٌ صنعته أنتَ بيديك، صنعته تلك التي تحتلك بيديها، صنعته تلك الكتب، تلك الأحاسيس، تلك الرؤى، التي تراودك، التي تراودها، أين أنتَ؟ حتى الدم الذي كان يثور في عروقك، يتمرد، ينتفض، ما عاد لك، وما عدت ثوريا، أو منتفضا، أو متمردا، أو هائجا، أو همجيا، أو بربريا، أو

ذلك الإنسان الذي كنته، ما عدتَ ذلك الإنسان، ما عدتَ إنسانا، ما أنتَ إلا فكرة، ما أنتَ إلا فكرة تتحرك في هيئة جسد، كتلك الفكرة التي غرستَها في قلبك، فاحتلته واحتلتْ كل شيء، روحٌ وهبتَها لها، هي لا شيء، أين روحك إذن؟ لو كنتَ أنت الآن بلا روح، والتي أهديتها روحك لا شيء، لا توجد، أين إذن روحكَ؟ هل تسرَّبت إلى فضاء الكون؟ وصارت صدى يتردد في أغنياتك؟ يكمن خلف قصائدك؟ دون أن يبين؟ دون أن تجده؟ ها أنت تحنَّ مرة أخرى، حنين يراودك، حنين يواسيك، حنين يؤرقك، لكنك أنت الذي قتلت روحك التي تحن إليها، ومن قتل روحه قتل جسده، لا تستغرب أنك لا تحس به الآن، لا تحس بشيء، لا تستمتع بشيء، لا تبتهج بشيء، كل الأمور سواء، مادام جسدك لا ينبض، كيف تريد إذن أن تحس؟ كيف تريد أنت أن تعيش كما يعيشون؟ أن تحس كما يحسون؟ أن تبتهج بكل شيء؟ لكل شيء؟ لأتفه الأسباب؟ كما يبتهجون؟ ما أنتَ مثلهم، كنتَ مثلهم، وبيدكَ زرعت وهمكَ، بيدك صنعتَ وهمك، صنعته على عينك، وعليك أن تتحمل ما صرت إليه، عليك أن تتحمل نتيجة ما جنته أحلامك، ما خطَّته بصيرتك التي تشعَّبت، التي امتدت إلى كل خيوط الكون، فربطت بينها ولم تستطع الخروج من الشرنقة التي تتسع داخلها تلك الخيوط، لم تستطع أن تعود أرضيا، ولم تستطع أن تصعد، أنت مفارقة أرضية، مغالطة أرضية، وصعودك الآن مهزلة، ما حان أوان صعودك، وحين يحين لن تكون في حاجة للأرض، أنت مغالطة تاريخية، مغالطة أرضية، وعليك أن تتجرع سكرات التَّوَزُّعِ، أن تتجرع آلام التمزق، أن تتجرع جسدا بلا روح، أو روحا زرعتها في قلبك بلا جسد، عليك أن تحصدَ ما زرعته في قلبك، من روح بلا جسد، أنت الذي صنعت الخطيئة، فها أنت تجني سيئات ما صنعته كل يوم، ها أنت تكفِّر عن سيئات ما صنعته من مغالطات كل يوم، تكفِّر وما هناك أحد يتحمل خطاياك، ما هناك أحد يتحمل خطايا أحد، عليك أن تتحمل ما كسبت، عليك أن تتجرع آثار توهمك...

الأعراف

"ينبغي أن تحضروا حقائبكم قبل موعد السفر بيوم، لا مجال للتأخير، المواعيد مضبوطة، الحملة برعاية الأمير بندر بن خالد، لن تكون هناك مضايقات، كل عام هكذا، اكتب اسمك على حقيبتك ورقم الباص، الموعد بعد صلاة العشاء مباشرة، تحرم في بيتك، لن ندخل الميقات..."

يتوافد الحجاج، لا تَحَرُّكْ، فقط الانتظار، يلصقون اللافتات التي تحمل اسم الأمير على واجهات الباصات، من ذا الذي يستطيع أن يمنع الباصات من المرور؟! اسمه كلمة السر، لها فعل السحر، نجلس في الباصات، يوزع أحد الرفاق كتاب "افعلها ولا حرج" لسلمان العودة، قدر من التفهم والتسهيلات لا بأس به، هكذا الدين يسر، لا حرج إن شاء الله، النساء في الخلف يا حجاج بيت الله، معنا أطفال، لابد من وجود الآباء والأمهات بجانبهم، لن يتحرك الباص قبل أن ترجع النساء للخلف، نعرف عادات بلادكم، لكنكم لابد أن تتبعوا عاداتنا هنا، لا نساء بجانب رجال.

نبدأ في التحرك، نقترب من محاذاة الميقات، لبيك حجا، يلفت انتباهنا رفيق، لابد أن نضيف "وإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني"، يلكز ابنه كي يقولها، يا ابن الـــ... قلها، لن نستطيع أن نذبح ذبيحة عن كل فرد، وإن حبسني حابس، نلبي في طريقنا إلى نقطة التفتيش، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، تتباطأ حركة الباصات، تكتظ نقطة التفتيش بالباصات ورجال المرور أو الشرطة، لا تستطيع تمييزهم، يشيرون بأيديهم للباصات بالتوجه يمين الطريق، تقف متراصَّةً، يطلبون التصاريح،

يُخْرِجُ السائقون تلك الورقة التي عليها خاتم لأمير، "يسمح لعدد ... بالمرور لوجه الله"، إذن تبرعنا بأموالنا لوجه الله، لسنا محتاجين، وأموالنا استلموها قبل كل شيء، قبل صور الإقامة، الصور الشخصية، إيصال التطعيم ضد الحمى الشوكية، لا بأس، المهم النية، دفعنا أموالنا بنية الحج، لا بأس، يشيرون بأيديهم للباصات أن تدور راجعة، تقف في الجهة اليسرى في انتظار بعضها البعض، يتهافت علينا الأَدِلاءُ، مرشدون، يعرضون إرشادنا عبر الطرق الفرعية في الصحراء، لكن سائقي الباصات لا يستمعون لهم، لا يرغبون حتى في معرفة الثمن، تسير الباصات في طريق العودة إلى أول دوران قبل الميقات، ثم تدور نحو نقطة التفتيش مرة أخرى، يعيدها أولئك الرجال من جديد، تعود إلى محطة الفريدي في المنتصف، سننتظر هنا إلى موعد تغيير الوردية، إن شاء الله سيسمح لنا ضباط الوردية الجديدة بالمرور، لِمَ لا تتصلون بالأمير؟ لا يتحرك أحد، لو اتصل به أحد الآن في هذا الوقت المتأخر لن يرد، كيف يكون الأمير في القصيم ويرعى حملة في المدينة المنورة؟ لو كانت الحملة تتبع أميرا لسمحوا لها بالمرور، أولى خطوات النصب، نحن الذين نستأهل كل ما يجرى لنا، نحن الذين استرخصنا، **1500** ريال، ليست رخيصة أبدا، فنقص السعر يقابله نقص في الخدمات، لا مخيمات لنا في المزدلفة، لا في مِنَى، لا في عرفات، مخيماتنا في وسط مكة، بالعكس سيوفرون معظم السعر، يبدو أن رجال المرور يعرفونهم، يعرفون تزويرهم، لا أمير، لا رعاية، الحملة ليس مصرحا لها بالعمل في مجال الحج أصلا، مجرد جمعية لتحفيظ القرآن، لا غير. تختلط الأصوات وتذوب في ضجيج السيارات المستبشرة على طريق مكة.

نقف في العراء في هذي المحطة وسط الصحراء، نظل جالسين في هذي الباصات الضيقة لساعات، تتجمد أرجلنا من الضيق، من البرد، لابد أن الشاي

بالنعناع سيخفف الأمر قليلا، شاي بالنعناع سكر زيادة، تضع فرعين من النعناع في كوبك، تصعد الرشفات إلى رأسك مدغدغة، يداعبها الهواء البارد في هذي الصحراء، تنتشي، تحس بأنك "عملت دماغا"، بريال واحد عملتها، تخرج موبايلك، تفتح برنامج التسجيل، تبدأ في بث عُلُوِّكَ في بعض القصائد، في محطات تتلاعب بك، هنا وهناك، عليك أن تنتظر، عليك أن تنظر يمينا، تنظر شمالا، تحملق في ذاك الوجه، تنظر إلى هذا، لا شيءٌ تفعله، بضعة أدعية تتضرع بها، تعلو رأسُك من تكرار الدعاء، من الاندماج، لا شيءٌ يعنيك الآن سوى ألا تغضب، ألا تفقد صبرك، لقد تعلَّمْتَ الدرس جيدا في الحج الماضي، وها أنت تتمالك أعصابك، كأن الموقف كله لا يعنيك، تنظر إلى تلك المحطة، تنظر إلى هذي الاستراحة، إلى المسجد الواقف بينهما، إلى الأتوبيسات الواقفة في الانتظار، انتظار إذنِ السماح للدخول إلى الأراضي المقدسة، ها أنت تقف مثلها، مثلهم، تحس بالأتوبيسات تتذمر، تحملق مثلهم، تبدأ رأسك في السُكْر، في العلو، تصعد إلى تلك الغيوم في الأفق، هل ذلك الشاي بالنعناع الذي شربته أثّر عليك؟ أم أن ذلك الهواء في الخلاء تلاعب بأوراق النعناع، بدّلها، حوّل الشاي إلى ما يُسكِر، لا تدري شيئا، لكنك تدري أنك شربت شايا بالنعناع، أنك أكلت السندوتشات التي جهزتها لك رانيا، ها أنت واقف في الهواء، واقف في الخلاء، ربما أصاب رأسك دوار، دوار به سُكَار، سُكْر دب إلى تلافيف مخك، وأرداك شاعرا تكتب القصائد وأنت على إحرامك في هذا الموسم المبارك....

ها أنت تنتظر، هل ابتدأ التكفير من الآن، أم أنك اعتدت الوقوف على نقاط التفتيش، اعتدت الوقوف على محطات الجوازات، لا أحد يرتضي أن يقبلك إلى داخل تلك الحدود، أم أن ذنوبك كُثُر وعليك أن تقضي العمر هنا، على نقطة التفتيش، على الأعراف، مكفِّرًا، حتى تخفَّ وتصير صالحا للحج، ماذا تقول؟ ماذا

تعيد؟ لا شيء الآن، لا شيء الآن أمامك سوى أن تنتظر، سوى أن تنتظر، أن تتحمل صبرك على القائمين على الحملة، ما ذنبك أنهم لم يستخرجوا تصريحا، ما ذنبك أنهم طمعوا في الريالات كلها، ما ذنبك، نصب على نصب، وأنت ابتغيت وجه الله، وعليك أن تصبر، عليك أن تظل صامتا، كي لا يفسد حجُّك، عليك ألا تبرح هذه الأرض حتى يأذن لك التصريح، حتى يؤذن لأبيك، حتى يأذن لكم الضابط خلسة، أو غشا، أو تهاونا، من حقّك أن تضحك، هههههه، وتنطلق إلى إكمال مشاعر الحج، ها أنت نويت من الميقات، ولا يحق لك الرجوع، إذا حبسني حابس فمحلي حيث حبسني، حيث حبستني، ها أنا الآن في محلِّي، ها أنا الآن محبوسٌ على الحدود، محبوسٌ على نقاط التفتيش، في انتظار لحظة أخرى، ها أنا.

تجدك لا تطيق الجلوس في الباص، الفراغات بين المقاعد لا تسمح لك بشيء، فقط الضيق والسكون، يخرج السائق حصيرا ويفرشه بجانب الباص وينام في الهواء البارد، في العراء، يبدو أنه معتاد على ذلك، يبدو أنه يعرف أننا سننتظر طويلا، يتناوب السائقون الكلام عن مصر وسوريا والقبائل، تستغرب من اسم سائقك، حزام، يقول إنه اتفق مع الحملة على عشرة آلاف ريال، أخذ ألفا منها مقدما والباقي بعد الرجوع، تقول في سرِّك يحمد ربه أنه نال ألفا منها، فربما لن يأخذ شيئا غيرها، ها نحن ننتظر على الحدود، لا نعرف لنا مصيرا، لا أحد يتفاءل بشيء، فقط الاستكار والسكوت، لا تغضب، أولى دروس الحج الصبر، ألا تغضب كي لا تُفْسِدَ حجَّك، لا رفس، لا فسوق، لا جدال، تُخْرِجُ غضبك في هدوء، انتقاد متمالك، تجدك تدور في تلك المحطة العارية، ربما طلبا للدفء، الحركة المتواصلة صديقة، تمسك موبايلك، تكلم نفسك، لن يظن بك أحد جنونا، أنت تمسك موبايلا على كل حال، فرَّقُوا زملاءك في الباصات، بعد حين تجد عبد الحميد، واقفا مثلك في العراء، يترك ابنه مع زوجته في الباص، لا يحتمل "أَنَسٌ"

كل هذا البرد، بدأ يسعل، ربما من البرد، ربما من العدوى، الناس يعطسون في الباص، حتى دون أن يضعوا مناديل ورقية على أنوفهم، ومنهم من يبصق على أرضية الأتوبيس، لا أحد يعرف النظافة الشخصية يا صديق، فقط قَدْرٌ من الشَّبَّة تحت الإبط بعد الاستحمام يكفي، لا أحد يطالبهم بِمُزيل العرق، الشَّبَّةُ رخيصة، ألا تدري أن من لا يحتاط ويُعدي شخصا بإهماله يرتكب ذنبا، يبدو أننا وقعنا ضحية عملية نصب، هل سيتحمل أصحاب الحملة ذنب الـ **350** حاجا إذا منعونا من الذهاب إلى مكة؟ هم الذين قصّروا برغبتهم في توفير تكلفة التراخيص، يحسبونها فهلوة، سيشفق عليهم الضابط ويسمح لنا بالمرور، سيخاف أن يتحمل ذنبنا، تشديدٌ هذا العام، تتصل بزوجتك، أعلنوا في التلفزيون إرجاع **150** ألف من مشتركي الحملات من على نقاط التفتيش، مازلنا في اليوم السابع من ذي الحجة، هل كل الحملات مخالفة؟ تجارة هي الحياة، لا شيء يهمُّ عند أصحاب الحملات، ونحن مازلنا في الفَجِّ العميق، مازلنا في الفَجِّ قبل نقطة التفتيش، فلنشرب شايا، ربما جلب لنا قدرا من الدفء، قدرا من الاطمئنان، تدق لسعة البرد الرءوس، تدق، تدق، البطاطين والملاءات في الحقائب مربوطة أعلى الباصات، لا مجال للدفء، وإحرامك ليس مُعَدًّا للصحراء، للعراء، للنصب، مُعَدٌّ فقط للشعائر، للتجوُّل في المشاعر المقدسة التي يدفئها الله دائما حتى في عز الشتاء، سبحانه وتعالى عما يفعلون... تفكر أن تذهب الآن لشراء كوب شاي آخر، تفكر جَدِّيًّا يا فتى، لكنك تتذكر أنك تصر الآن على السُّكْرِ، ربما كان كوب الشاي السابق قد أحدث سكرا عفويا، لا ذنب لك فيه، لكنك الآن لا طاقة لك على ذنوب أخرى، عندك من المعاصي ما يكفي لتورم قدميك طوال الحج، لتضرعك طوال أيامه طلبا للمغفرة، لا تنس أنك تطلب المغفرة لك ولأبيك، ثمانية وسبعون عاما من الذنوب، أضف إليها اثنين وثلاثين عاما عشتماها

سويا، لا تنقصك ذنوب أخرى، إذا اشتريت الآن كوب شاي آخر، ستكون قد سكرت، مع سبق الإصرار والترصد سكرتَ، وسيجلدونك، سيعدمونك، لا تعرف، على الأقل جَلْدٌ، كما أنك في طريقك للحج الآن، لا يحقُّ لك، احترمْ إحرامك، لا ينبغي عليك، لا تحبُّ أنت، لا تحب أن ترتكب ذنبا عامدا، أن ترتكب خطيئة في هذي الأيام المباركة، يكفيك ما ترتكبه جاهلا أو ناسيا، أيام تنتظرها بين الحين والحين، لتكفّر ما تقدم من ذنب، لتكفر كل ما تقدم من خطايا، اقترفتها أم لم تقترفها، القصد ليس نهاية المطاف، لا تنسَ أنك ستحج لأبيك، لا تنسَ أنه ينتظرك الآن. يبدو أن برنامج التسجيل في موبايلك يستعذب صوتك، أو ربما يستحثك على إخراج ذنوبك على السطح، تجمِّعُهَا، في مَلَفٍّ واحد، ربما تمهيدا لأن تستجمع كل عزمك وترمي بها الشيطان في جمرة العقبة، في كل الجمرات، تلقيه بها، علك ترتد إليك حساسا، تواقا، متوقد الإحساس، نابض الجسد، هيا، افعلها ولا حرج، أخرجها، ربما وجدت الراحة، أنت على حج، وستعود كما ولدتك أمك بإذن الله، هيا، لا تتردد، بسم الله الرحمن الرحيم... نويت والنية لله، أنك خارج للحج، نويت ويشهد عليك ميقات ذي الحليفة، نويت والنية لله، أنك ستحج لأبيك، ها أنت الآن تقف على الحدود، دون أن يُسمَح لك بالدخول، دون أن تأخذ تأشيرة مرور على طريق مكة، هل يا ترى يقف أبوك الآن على الحدود، في انتظار تأشيرة المرور، في انتظار مرورك إلى أداء الشعائر؟ هل يا ترى يقف منتظرا؟ أم أنه بلغ مثواه في نعيم؟ وهل إذا عبرت أنت الحدود إلى هناك، هل ستضمن أنك ستتقن المراسم؟ الشعائر؟ أم أنك...؟ لا يهم، كل ما في وسعي سأبذله، كل ما في وسعي سأتضرع به، كي يعبر أبي الحدودَ.

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر ومترجم وناقد ودكتور جامعي. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995.حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس ومنذ 2005 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين (الآداب حاليا) بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.

elgezeery@yahoo.com، elgezeery@gmail.com

إصدارات : (1) قصص قصيرة

1 – فتافيت الصورة ، ثقافة القاهرة ، 2001

2 – بدايات قلقة، سلسلة الكتاب الأول، المجلس الأعلى للثقافة، 2004.

3 – نقوش على صفحة النهر، القاهرة، دار التلاقي للكتاب، 2009.

4 – غلق المعابر ، القاهرة ، دار التلاقي للكتاب ، 2010

5 – رائحة مأتم ، القاهرة ، دار التلاقي للكتاب ، 2010

(2) شعر

1 – لا تنتظر أحدا يا سيد القصيد، القاهرة، دار التلاقي للكتاب، 2009.

2 – حفل توقيع،جمال الجزيري،دارالتلاقي للكتاب،2010

3 – ونظل على الإشراق،جمال الجزيري، القاهرة، دارالتلاقي للكتاب،2010

4 – أصوات نهر قديم، جمال الجزيري، القاهرة، دارالتلاقي للكتاب،2010

5 – خارطة المطر ، جمال الجزيري ، القاهرة، دارالتلاقي للكتاب،2010

(3) دراسات نقدية

1 – الحوار مع النص : جماعة بدايات القرن نموذجاً . القاهرة: جماعة بديات القرن، 2002.، 2 – "أنسنة السرد: قراءة في سر الأسرار لمحمد حسن عبد الله ". محمد حسن عبد الله : دراسة وتكريم، تحرير د.مصطفي الضبع. جامعة القاهرة. كلية دار العلوم بالفيوم، 2001.، 3 – "مشروعية دراسة عتبات النص: قراءة في روج أبيض لزاهر الغازياى". المؤتمر الأول لأدباء القاهرة، 20 – 22 فبراير 1999، كتاب الأبحاث .4 – " الشعر البديل: قراءة في أشعار من قنا". مؤتمر قنا الأدبي الثاني.16 – 18 يناير

2000، كتاب الأبحاث.5 – أخبار الأدب، مقالة "شكري عياد وتطبيع النص الأرسطي في الثقافة العربية"، تأليف د. جمال الجزيرياالأحد7مايو2006،، 6 – دراسة نقدية بعنوان "شكري عياد والحداثة" (مجلة جسور، العدد 19، السنة الثانية، سبتمبر أيلول 2006، باب الأدب والفن)، 7 – دراسة نقدية بعنوان "البطل من الأسطورة إلى الأدب عند شكري عياد" (مجلة الرافد، عدد 109، سبتمبر 2006).، 8 – دراسة نقدية بعنوان "تداخل الأصوات وتفكيك الأيديولوجية في قصيدة "متى يأتي الجيش العربي؟" للشاعر السمّاح عبد الله"، صحيفة منبر دنيا الوطن، صحيفة فلسطينية إلكترونية، 21 فبراير 2007.، 9 – عرض نقدي للمجلد الثامن من موسوعة كمبردج للنقد الأدبي ، نشر بمجلة إبداع ، العددان السابع والثامن، 2008.، 10 – "عدسة الحياة المسرحية: رؤية العالم المسرحية في مونودراما " السيد تمام". السيد تمام لنجاح عبد النور. القاهرة، دار التلاقي للكتاب، 2009. ص 37-67.

(4) ترجمة

1- أسطورة بروميثوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (مشاركة، 2001) 2- أقدم لك..الذهن والمخ (2001) 3- سحر مصر للرحالة الإنجليز (2002)4- أقدم لك... فرويد(2003) 5-أقدم لك...تروتسكي والماركسية (2003)6- أقدم لك...فرانتس كافكا(2003) 7-أقدم لك...رولان بارت (2003) 8-أقدم لك ... علم العلامات (2005) 9- اليهودية أيديولوجية قاتلة (2003) 10- أقدم لك...الحركة النسوية (2005) 11- أقدم لك...ما بعد الحركة النسوية(2005) 12-أقدم لك ...النظرية النقدية(2005) 13-أقدم لك...القتل الجماعي(2005) 14- أقدم لك ... التحليل النفسي(2006) 15-المجلد الثامن من موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي(مشاركة، 2006) 16-الجزءالأول من المجلد الرابع من موسوعة كمبريدج للنقد لأدبي (مشاركة، 2006) 17- معجم دراسات الترجمة (2009) 18- مقالة مترجمة بعنوان "تنمية المواهب في التعليم" مجلةالمعرفةالسعودية في عدد يوليو2006.(ص94-97) 19- مقالة مترجمة بعنوان "العنوان: مكانه وزمانه، مرسله ومستقبله". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة، فرع ثقافة القاهرة. عدد فبراير 1999. (ص 36-45) 20- مقالة مترجمة بعنوان "وظائف العنوان". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة فرع ثقافة القاهرة.عدد يونيو 1999.ص39-50

قائمة المحتويات

إصدارات "دار التلاقي للكتاب" في سلسلة

" النصوص القصصية "

1 – **نقوش على ضفة النهر** ، جمال الجزيري

2 – **رائحة مأتم** ، جمال الجزيري

3 – **غلق المعابر** ، جمال الجزيري

4 – **سيمفونية التمرد** ، د . مخلص أمين رزق



دار التلاقي للكتاب

تعنى بنشر الثقافة الرفيعة والإبداع المتميز

0117652396 / 33477903

altalaqi22@yahoo.com